الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
كلية الشريعة و الاقتصاد

مطبوعة موجهة لطلبة السنة الأولى

جذع مشترك علوم إسلاميةل م د

السداسي الثاني

مادة: التاريخ الإسلامي

عصر الخلافة الراشدة

تأليف أساتذة المادة
تحت إشراف: أ. عزيز حداد

السنة الجامعية:2014-2015

الفصل الأول:نظام الخلافة

الخلافة في القرآن الكريم :

جاءت لفظة الخلافة في القرآن بصيغ متعددةمنها قوله تعالى" وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لكقال إني أعلم ما تعلمون " البقرة.الأية: 30.

"وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيماآتاكم"الأنعام.الآية:30.

"يا داوود إنّا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلونعن سبيل اللهلهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب " ص.الأية:26.

" وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكننّلهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون " النور.الأية:55.

الخلافة في أحاديث نبوية:

" الخلافة في أمتيثلاثون سنة ثم ملك بعد ذلك " رواه الترمذي في سننه وأحمد في مسنده.

" تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن يرفعها ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما شاء الله أن يرفعها ثم تكون ملكا غاضا تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ثم سكت" رواه أحمد.

" الخلافة في قريش والحكم في الأنصار والدعوة في الحبشة والهجرة في المسلمين والهجرة في المهاجرين المسلمين والمهاجرين بعد " رواه أحمد.

" الملك في قريش والقضاء في الأنصار والأذان في الحبشة الأمانة في الأزد (يعني اليمن) " رواه الترمذي .

" أن هذا الأمرلا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشرة خليفة كلهم من قريش" رواه مسلم في صحيحه والترمذي في سننه.

تعريف الخلافة

لغة:

هي مصدر للفعل خلف، يقال خلفه في قومه ويخلفه خلافة فهو خليفة ومنه قوله تعالى:" وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي" الأعراف:142.وخلفته أي جئت بعده وأنبت عنه،كما يقال:خلفت فلانا وأخلفته تخليفاواستخلفته أي جعلته خليفتي،والخليفه الذي يستخلف ممن قبله والجمع خلائف...ويذهب سيبويه إلى أنّ جمع خليفة خلفاء فهو تكسير فعيل لأته لا يكون إلاّ للمذكر، وقال غيره: فعيلة بالهاء لا تجمع على فعلاء . قال ابن سيده: وأمّا خلائففعلى لفظ خليفة ولم يعرفخليف...وأنشد لأوس بن جعد:

إنّ من الحي موجودا خليفنهوما خليف أبي وهب بموجود (1)

اصطلاحا:

هي رئاسة عامة في أمور الدين والدنيا، وقد عرفها الماوردي:" الإمامة موضوعة لحلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا، وعقدها لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع"(2).ويقولابن خلدون:"هي حمل الكافة على مقتضىالنظم الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها إذ أحوال الدنيا نرجع كلها عند الشرع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به"(3). وهي واجبة شرعاوعقلا.وقد ذكرت بأسماء أخرى كالإمامة وإمارة المؤمنين والسلطنة.

شروط الخلافة:الإسلام، العقل،الحرية، البلوغ، الذكورة، سلامة الحواس والأعضاء، إضافة إلى ذلك العلم المفضي إلى الاجتهاد،العدالة،الكفاية والشجاعة وحسن الرأي،النسب القرشي الذي اختلف فيهبين العلماء والمذاهب والفرق.وعموما فإن هذا النظام انفردت به الحضارة الإسلامية بمميزاته وأسسه، إذ أنّ مبدأ الشورى والبيعة الخاصة من أهل الحل والعقد والبيعة العامة أمر ضروري للخلافة، وما حدث بعد ذلك من تطور وتغيرعبر العصورالتاريخية كولاية العهد والتوريث والتراجع عن الشورى، وما نتج عنه من سلبيات يعد انحراف في تاريخنا الإسلامي.

---

(1) . ابن منظور, لسان العرب, , دار الجيل, بيروت, 1989, مج2, ص 320.

(2) . الماوردي,الأحكام السلطانية والولايات الدينية,ديوان المطبوعات الجامعية, 1983,ص5.

(3) . ابن خلدون :المقدمة .ص 338

هل أوصى الرسول صلى الله عليه وسلم لأحد بالخلافة ؟

من الثابت تاريخيا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعين للمسلمين من يقوم بأمر الدولة الإسلامية بعد وفاته. بل لم يحدد رسول الله الطريقة التي تتبع في اختيار الحاكم بعده.. وإنما أوضح الرسول القواعد العامة التي يجب أن يراعيها الحاكم في سيرته مع المسلمين وبين بسيرته وأقواله - المثل العليا التي يجب التمسك بها والمحافظة عليها من جانب الحاكم والمحكومين على السواء.

وأما ما يروى من الأحاديث الشريفة التي تبين فضائل الصحابة رضوان الله عليهم وبخاصة الأربعة الذين تولوا الخلافةبعد النبي صلى الله عليه وسلم فإنها لا تعدوا أن تكون تزكية وتكريما إلى فضلهم وعلو قدرهم.. بغض النظر عن صحة هذه الأحاديث أوضعفها.. منها قول النبي صلى الله عليه وسلم : "رحم الله أبا بكر زوّجني ابنته وحملني إلى دار الهجرة،وأعتقبلالا.رحم الله عمر يقول الحق وإن كان مرّا، تركه الحق وماله من صديق. رحم الله عثمان، تستحيه الملائكة. رحم الله عليّا، اللهم أدر الحق معه حيث دار".(1)

وأخرج أصحاب السنن وغيرهممعن سعيد بن زيد قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " أبوبكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة وعلي في الجنة..."، وذكر تمام العشرة.(2)

ولكن بعض من المؤرخين يرون أن الرسول صلى الله عليه وسلم أوحى له بالخلافة من بعده...ومن الآيات التي اتخذت حجة على استخلاف أبي بكر رضي الله عنه قوله تعالى : { يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه }(المائدة54). وقد فسَّر الحسن البصري هذه الآية بقوله : " هو والله أبوبكر وأصحابه لما ارتدت العرب جاهدهم أبو بكر وأصحابه حتى ردّوهم إلى الإسلام " .

ومنها قوله تعالى { وعد الله الذين آمنوا منكموعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض }(النور / 55).ومنها قوله تعالى { أولئك هم الصديقون } (الحديد / 19).

لكن هذه الآيات الكريمة ليست صريحة الدلالة على استخلاف أبي بكر وإنما تعتمد على التأويل والتفسير، والإشارات فيها بصيغة الجمع تشمل أبا بكر وغيره من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(1) . السيوطي : تاريخ الخلفاء .ص 48

(2) . المصدر نفسه ص 47

وفي الآيات إخبار بالغيب، وإشارة لما سيقع من أحداث بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم مثل ردّة العرب. وفتوحات المسلمين في بلاد الفرس والروم،وهي من دلائل إعجاز القرآن الكريم.(1)

ولوكان هناك نص صريح من رسول الله صلى الله عليه وسلم على خلافة أبي بكر رضي الله عنه لواجه به الأنصار يوم السقيفة. ولما كان لأحد منهم أن ينطق بكلمة سوى القبول والتسليم.

ويرى الشيعة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نص على خلافة علي من بعده، وأنه صلوات الله عليه أراد أن يوثق ذلك في كتاب أراد أن يكتبه في مرض موته. فعمل عمر بن الخطاب على أن لا يتم ذلك. حتى غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعدل عن كتابة هذا الكتاب. ويذهب الشيعة إلى أن المراد بالكتاب الذي كان يريد النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يكتبه هو استخلاف علي من بعده على حين يذهب غيرهم إلى أن الذي كان يراد بالكتاب هو أبوبكر.. !

ومن أهم تلك النصوص حديث "غدير خم "(2) :عن البراء بن عازب قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلنا غدير خم بعث مناديا ينادي، فلما اجتمعنا قال : "ألست أولى بكم من أنفسكم ؟قلنا : بلى يا رسول الله ! قال :ألست أولى بكم من أمهاتكم ؟قلنا : بلى يا رسول الله ! قال :ألست أولى بكم من آبائكم ؟ قلنا بلى يارسول الله ! قال : ألستألستألست ؟قلنا : بلى يارسول الله !قال : من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه " .(3)

والحديث الذي رواه مسلم أيضا عن ابن سعد بن أبي وقاص قال : خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب في غزوة تبوك فقال يا رسول الله : تخلفني في النساء والصبيان !فقال : أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لانبي بعدي « .(4)

وقالوا : إن الشريعة التي جاء بها النبي ـ صلى الله عليه وسلم لابد من وصولها صحيحة إلى الناس بعد عهده ليحصل عليهم التكليف، فلابد أن يكون هذا الحافظ والناقل غير جائز عليه الخطأ. وإلاّ كان وصول الشريعة غير متحقق، وقالواأن هذا النقل لا يتم بتواتر، لأنه يثبت ما وصل ولكنه لا ينفي ولا يثبت ما لم يصل. فيبقى جانب من الشريعة غير منقول ولا بالإجماع. لأن عصمة الإجماع غير ثابتة بالعقل ولا يمكنإثباتها

(1) . محمد عبد الحميد الرفاعي :الدولة الإسلامية في عصر الراشدين .ص 11،12

(2) . خم:موضع بين مكة والمدينة قريب من الجحفة (وهي ميقات أهل الشام إذا لم يمروا بالمدينة) وقد خطب عنده الرسول (ص).أنظر:ياقوت : معجم البلدان 2 /389

(3) . ابن كثير : البداية والنهاية 350/7

(4) . ابن الأثير : جامع الأصول 648/8 (باب فضائل علي)

بالنقل إلاّ إذا اشترطنا إجماعا آخر على الدليل فيلزم عليه أن نستدل على ما لم يثبت بغرض إثباته. وهوالدور. فإذن لا يمكن أن تبقى الشريعة محفوظة أوتصل كاملة ومتيقنة. وصحيحة إلاّ بحفظ. ونقل أشخاص معينين موصوفين بوجوب العصمة (1).

واستدلوا أيضا بأن إثبات الإمامة باختيارالناس-أي دون أن تكون بتعيين من الله- يفضي إلى الفتنة، إذ يحدث الاختلاف بين الناس لأسباب كثيرة، ولا يمكن ترجيح رأيّ على رأيّ، ولا تفضيل فريق على آخر، فيِؤدّي ذلك إلى التنازع والحرج والمرج وتنشأ من ذلك الحروب فرفع أسباب هذا النزاع كلها من أسبابها، بتعين الإمام من الله أي بنص الشرع وفي هذا لطف من الله بعباده (2)

وقد رد علماء السنة على ما أورده الشيعة من أدلة بأدلة كثيرة نذكر منها :

أن النص على الإمام يتناقض مع مبدأ البيعة الذي هوحق من حقوق الأمة شهدت به النصوص الشرعية من ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من خلع يدا من طاعة لقيّ الله يوم القيامة على جاهلية " . (3)

ومن أدلتهم أيضا أن اختلاف الصحابة فيمن يكون خليفة بعد النبيّسواء في سقيفة بن ساعدة أوبعد وفاة أبي بكر رضي الله عنه وتعدد آرائهم وميولهم في ذلك يدل على أن ليس ثمة نص من الرسول صلى الله عليه وسلم في ذلك "ولو ورد نص على إمام بعينه لكانت الأمة بأسرها مكلفة بطاعته، ولا سبيل لهم إلاّ العلم بعينه بأدلة العقول والخبر لوكان تواترا لكان كل مكلف يجد من نفسه العلم وجوب الطاعة له وإلا لزمه دينا كما لزمه الصلوات الخمس دينا، ولما جاوزوا إلى غيره بيعة وإجماعا. ومن المحال من حيث العادة أن يسمع الجمع الغفير كلاما من الرسول صلى الله عليه وسلم ثم لا ينقلونه في مظنة الحاجة، وطراوة الدين، وإن كانت الدواعي وخلوص العقائد موجودة والصوارفعنه مفقودة ولم ينقل دلّ على أنه لم يكن في الباب نص أصلا.. وأيضا لو عيَّن شخصا لكان يجب على ذلك الشخص المعَيَّن أن يتحدى بالإمامة ويخاصم عليها، ويخوض فيها حتى إذا دفع عن حقه سكت ولزم بيته، فيظهر الظالم عليه. ولم ينقل أن أحدا تصدى للإمامة وادعاها نصا عليه وتسليما إليه.. ".(4)

---

(1) . ضياء الدين الريس : النظريات السياسية الإسلامية .ص 165

(2) . المصدر نفسه: ص 164

(3) . صحيح مسلم :كتاب الإمارة (باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن) 240/12

(4) . الشهرستاني : نهاية الإقدام في علم الكلام .ص 480 عن الخالدي :قواعد نظام الحكم في الإسلام.ص 288

فدعوى وجود النص على خليفة أوحى له النبيّ صلى الله عليه وسلم بالخلافة. دعوى تتناقض مع واقع الصحابة السياسي. هذا الواقع الذي اعتمد الشورى والبيعة كأساسيين لتولية الخلفاء امتثالا لكتاب الله وحكمه في وجوب الشورى والبيعة على المسلمين. وما دام الامتثال لكتاب قد تحقق بالشورى والبيعة فلا مكان للنص إذ أنه يتناقض مع واقع الحكم الشرعي الثابت عن الله وعن رسوله صلى الله عليه وسلم .(1)

وإذا جئنا إلى واقع النصوص التي استدل بها علماء الشيعة لإثبات قضية التنصيص بالخلافة لعلي بالذات نجدها لا تثبت أمام ميزان النقد العلمي، فهي إما موضوعة أولا تحتمل دلالات ألفاضها ما نسجوه حولها من معان، فانتهوا إلى أنها موضوعة. يقول ابن حزم: " وعمدةهذه الطوائف كلها في الاحتجاج بأحاديث موضوعة مكذوبة ". (2) ويقول ابن خلدون: "إنهم يؤيدون مذهبهم بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم لا يعرفها جهابذة السنة، ولا نقلة الشريعة، بل أكثرها موضوع أو مطعون في طريقه، أوبعيد عن تأويلاتهم الفاسدة " . (3)

وقد تعرض الباقلاني في كتابه التمهيد لأدلة الشيعة الحديثية وبيّن أنها على فرض صحتها، والأخذ بها فإنها لا تفيد التأويلات التي استندوا إليها ولا المعاني التي اعتمدوها لإثبات النصيّة لعلي بالإمامة فقد قال في حديث : " من كنت مولاه فعلي مولاه " قيل لهم إن لكلمة (مولى) معان كثيرة فمنها المولى بمعنى (الناصر)، ومنه المولى بمعنى (ابن العم) ،ومنها المولى بمعنى المُوالي(المحب)،ومنها المولى بمعنى (المكان والقرار)، ومنها المولى بمعنى (المعتق المالك للولاء)، ومنها المولى بمعنى (المعتق الذي ملك ولاءه)،ومنها المولى بمعنى (الجار)، ومنها المولى بمعنى (الصهر)، ومنها المولى بمعنى(الحلف). فهذا ما يتحمله قول - مولى(4) - وليس من معنى هذه اللفظة أن المولى إمام واجب الطاعة....

وبعد أن استدل الباقلاني لكل معنى من هذه المعاني المختلفة لكلمة (مولى) ذكر أن ما قصده النبي صلى الله عليه وسلم بهذهالكلمة يحتمل أمرين :أحدهما :من كنت ناصره على دينه وحاميا عنه بظاهري وباطني وسري وعلانيتي، فعلي ناصره على هذه السبيل.

---

(1) . عبد القادر جدي : حرية ممارسة الحقوق السياسية في النظام الإسلامي (رسالة ماجستير) معهد الشريعة . جامعة الأمير عبد القادر. قسنطينة . 1994 .ص 192

(2) . ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل 94/4

(3) . ابن خلدون :المقدمة .ص 348

(4) . أنظر: لسان العرب .مادة "ولى"

والثاني : من كنت محبوبا عنده ووليا له ظاهري وباطني فعلي مولاه، أي أن ولاءه ومحبته من ظاهره وباطنه واجب، كما أن ولائي ومحبتي على هذه السبيل واجب.(1)

يقول عبد الكريم الخطيب :" أما أن تكون الموالاة هي إقرار الخلافة لعلي بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فذلك بعيد من وجوه :

أولها : إن المبايعة بالخلافة لا يترتب عليه حب الخليفة حبا موصولا بحب الله ورسوله إذ قد ينحرف الخليفة عن سواء السبيل فلا يكون حبه لله ولرسول الله...على حين أن ولاء الحب يكون دائما سواء أكان علي خليفة أوغير خليفة...بل إن بُعد علي عن الخلافة هوالذي جمع القلوب على حبه كرم الله وجهه..فلما لبس الخلافة كثر الخلاف عليه والمبغضون له، والها لكون كفرا ونفاقا في سَبه، والعدوان عليه، والتطاول على مقامه.

ثانيهما : أنه لوكان المقصود بالخلافة بعد الرسول صلى الله عليه وسلم " من كنت مولاه فعلي مولاه "هومبايعة عليّ بالخلافة بعد الرسوللكان جميع المسلمين الذين بايعوا أبا بكر آثمين بل كافرين لخروجهم عن أمر رسول الله . وهذا منفي عن المسلمين بإجماعهم على بيعة أبي بكر ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " لا تجتمع أمتي على ضلالة " .

ثالثهما : أن عليا كرم الله وجهه وهوصاحب الموقف هذا، قد بايع أبا بكر رضي الله عنه وهنا إقرار منه بأن الموالاة غير البيعة بالخلافة وإلا لكان عليه أن يثبت على قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ولوتخطفته الطير.

رابعهما : أن عليا كرم الله وجهه قد روى عنه أكثر من خبر صرح فيه بأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم لم يعهد له بالخلافة.

فعن ابن عباس أن العباس أخذ بيد علي وقال له : " ألا ترى أنك بعد ثلاث عبد العصا؟ والله إني لأرى رسول الله صلى الله عليه وسلم سيتوفى في وجعه هذا، وإني لأعرف الموت في وجوه بني عبد المطلب. فأذهب إلى رسول الله فأسأله فيمن يكون هذا الأمر ؟ فإن كان فينا علمنا ذلك وإن كان غيرنا أقرنا وأوحى بنا. فقال علي والله إن سألناها رسول اللهفمنعناها لا يعطيناها الناس أبدا "عن الحسن البصري قال :" قال لي علي بن

(1) . الباقلاني : تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل .ص 456

أبي طالب لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم نظرنا في أمرنا. فوجدنا النبيّ قدم أبا بكر في الصلاة فرضينا لدنيانا من رضيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا ". (1)

ويقول ابن كثير :" إن ما يفتريه البعض من أن الرسول صلى الله عليه وسلم أوصى إلى علي بالخلافة كذب وبهت وافتراء.... ولما بويع الصديق يوم السقيفة كان علي من جملة من بايع بالمسجد، وكان بين يدي الصديق كغيره من أراء الصحابة يرى طاعته فرضا عليه...فلما توفي أبوبكر وقام عمر بالخلافة كان علي من جملة من بايعه وكان معه يشاوره في الأمور ولما قدم عثمان على علي سمع وأطاع.. ".(2)

فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يوصي لأحد من بعده بالخلافة لأبي بكرولا لعلي ولا لأحد من الصحابة، ولم يترك الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك سهوا ،لأنه لا ينطق عن الهوى، ولونسيلذكره به الوحي ولم يتركه لانشغاله بشدة مرضه. فإن مرضه صلى الله عليه وسلم لم يكن بالدرجة التي تمنعه من التحدث إلى أصحابه.. بل كان قادرا في لحظاته الأخيرة على الذهاب إلى المسجد وعلى التحدث إلى المسلمين في أمور دينهم. فأوصى المهاجرين بالأنصار وأوصى بإنقاذ جيش أسامة وكان قادرا – ولوأراد - أن يوصي بالخلافة.(3)

ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم ترك الأمر عمدا ليقر مبدأ هاما هوتفويض أمر الاختيار للأمة لتكون صاحبة الحق في اختيار حاكمها، كما ترك تفاصيل نظام الحكم دون تحديد ليقرر المسلمون . حسب مصالحهم . ما يناسب متطلبات الزمان والمكان والظروف المتغيرة غير مقيدين إلاّ بالقواعد العامة للشريعة الإسلامية، وبالقواعد والمثل الأخلاقية العليا التي ضربها رسول الله صلى الله عليه وسلم خلال سنين حكمه في المرحلة المدنية منذ قامت الدولة الإسلامية الأولى حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى .(4)

وتفسير الأمر على هذه الصورة أقرب إلى روح الإسلام وطريقته في التشريع وأكثر اتفاقا مع طبيعته ونزعته العالمية من بعض الآراء التي ذهب إليها بعض الباحثين والتي تفسر ترك الرسول صلى الله عليه وسلم تعيين خليفة أوتحديد طريقة اختياره بأنه كان في ذلك يجاري التقاليد العربية والتي منها أن القبيلة - فيما يزعمون -كانت تترك حرة تختار من تشاء ليحكمها.

---

(1) . عمر بن الخطاب .ص 153 ،155

(2) . البداية والنهاية 225،226/7 (بتصرف)

(3) . الرفاعي :الدولة الإسلامية في عهد الراشدين .مرجع سابق .ص 16

(4) . محمد سليم العوا :في النظام السياسي للدولة الإسلامية .ص 67

والواقع أنه لم يكن ثمة تقليد واحد معين تتبعه القبائل العربية في هذا الصدد. فقد عرفت بعض القبائل نظاما ملكيا كما في جنوب جزيرة العرب وأطراف بادية الشام.. وعرفت بعض القبائل طرقا أخرى للاختيار الرؤساء أوالزعماء. وكانت قبائل أخرى تبقى أمورها فوضى حتى يظهر شخص قوي يستطيع أن يجمع القبيلة على الخضوع لقوته وسلطانه فليس هناك ما يمكن أن يسمى بالتقاليد العربية في هذا الخصوص. (1)

وإذا كان النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يوص لأحد من أصحابه. فهل أوصى لفئة أوجماعة بعينها بمعنى أن تكون الخلافة مقصودة على المهاجرين أوالأنصار أوبنوهاشم أوقريش لا يوجد أمامنا نص أودليل على أحقيته جماعة بعينها إلا ما يروى في شأن قريش. فقد روي عن أبي برزخ أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال :" الأئمة من قريش ما حكموا فعدلوا، وعدلوا فوفوا،واسترحموا فرحموا " .

وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال صلى الله عليه وسلم :" الأمراء من قريش أبرارها أمراء أبرارها وفجارها أمراء فجارها ".(2)

وقد حاول المفكرون المسلمون أن يجمعوا بين هذه الأحاديث والنصوص الأخرى التي تؤكد المساواة بين المسلمين،وعدم تميز فئة على أخرى إلا با لتقوى مثل قوله تعالى :{إن أكرمكم عند الله أتقاكم } (الحجرات / 13). وقوله عليه الصلاة والسلام .: " اسمعوا وأطيعوا وإن وُلِيّ عليكم عبد حبشي ذو زبيبة " فقال البعض: إن هذه الأحاديث تشير إلى أولوية قريش وأفضليتها ولكنها لا تنفي الخلافة عند غيرهم. فإذا تساووا في الصفات المذكورة في الحديث من عدل ووفاء ورحمة كانوا أولى من غيرهم، وإذا زاد عنهم في هذه الصفات كان أولى منهم.

ويرى البعض أن شرط النسب القرشي مرهون بفترة زمنية محدودة هي الصدر الأول عندما كان لقريش القوة والعصبية اللازمة لحماية الدولة ولكن هذه الميزات ضعفت ثم تلاشت مع مرور الزمن، ولذلك نفى عدد من علماء المسلمين هذا الشرط ومنهم أبوبكر الباقلاني وربطه ابن خلدون بشرط الكفاية وهي وجود العصبية حتى لوكانت في غير قريش فقال : "إن ذلك إنما هومن الكفاية، فرددناه إليها، وطردنا العلّة المشتملة

(1) . العوا: في النظام السياسي للدولة الإسلامية، مرجع سابق ،ص 67،68

(2) . السيوطي :تاريخ الخلفاء .ص 10

على المقصود من قريش، وهي وجود العصبية فاشترطنا في القائم بأمور المسلمين أن يكون من قوم أولي عصبية قوية غالبة على من معها لعصرها.." . (1)

ومن كل ما تقدم نخلص إلى القول بأن النبيّ صلى الله عليه وسلم ترك أمر الخلافة عمدا ليُقرَّ مبدأ هاما وهوتفويض الأمر للأمة، لتكون صاحبة الحق في اختيار حاكمها، ويصبح ذلك سنة وقاعدة تتبعها الأجيال من بعده. مكتفيا بما ورد في الكتاب والسنة من مبادئ العدل والشورى والمساواة.(2)

مؤتمر السقيفة

توفي النبيّ صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين (12 ربيع الأول من السنة الحادية عشر من الهجرة.) ولم يعين له خلفا بل ترك الأمر شورى بين المسلمين كما سبق بيان ذلك. فسارع الأنصار إلى التفكير في أمر خلافة الرسول صلى الله عليه وسلم، قبل دفنه عليه الصلاة والسلام، وبادروا إلى الاجتماع في سقيفة بني ساعدة.(3)

وجاءوا بسعد بن عبادة الخزرجى رضي الله عنه وهومريض بالحمى ليبايعوه ،والخزرج هم أكثر الأنصار، وزعيمهم سعد بن عبادة من كبار الصحابة، ومن الذين توفي عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهوعنهم راض لذا فقد اتفقوا على بيعته.. وعلم عمر بن الخطاب اجتماعهم. فاستدعى أبا بكر الذي كان مشغولا بتجهيز الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفي الطريق انضم إليهما أبوعبيدة بن الجراح، ولحقوا بالأنصار في السقيفة. ممثلين لوجهة نظر المهاجرين .ودار بين الفريقين حوار سياسي على درجة عالية من الوعي والنضج مما يذكرنا بأرقى ما تكون عليه المؤتمرات السياسية في العصر الحديث.

وقد ظهرت في هذا المؤتمر عدة آراء ونظريات، وأولها :تمثل وجهة نظر الأنصار وقد عبّر عنها سعد بن عبادة بقوله : " يا معشر الأنصار إن لكم سابقة في الدين وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبث في قومه بضع عشرة سنة يدعوهم إلى عبادة الرحمان وخلع الأنداد والأوثان فما آمن من قومه إلاّ رجال قليل ،وما كانوا يقدرون أن يمنعوا رسول اللهِ (أي يدافعوا عنه) ولا أن يعزّوا دينه ولا أن يدفعوا على أنفسهم ضيما عُمُّوا به، حتى أراد الله بكم الفضيلة وساق إليكم الكرامة

(1) . المقدمة: ص 347

(2) . الرفاعي :عصر الخلافة الراشدة .ص 19

(3) . سقيفة بني ساعدة هي ظُلة كانوا يجلسون تحتها، وهي لبني ساعدة بن كعب من الخزرج، وكانت دار سعد بن عبادة مما يلي سوق المدينة وعندها السقيفة .

وخصكم بالنعمة فرزقكم الله الإيمان به وبرسوله ،والمنع له ولأصحابه والإعزاز له ولدينه والجهاد لأعدائه فكنتم أشد الناس على عدوه حتى استقامت العرب لأمر الله طوعا أو كرها. وأعطى البعيد المقاد صاغرا حتى أثخن الله عزّ وجل ورسوله بكم الأرض، ودانت بأسيافكم العرب، وتوفاه الله وهو عنكم راض وبكم قرير العين. استبدوا بهذا الأمر فإنه لكم دون الناس.."(1)

يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : " فلما قضى الأنصاري مقالته، أردت أن أتكلم بمقالة قد كانت أعجبتني بين يديّ أبي بكر فلما أردت أن أتكلم. قال أبو بكر : على رسلك، وكنت أعرف منه الجد فكرهت أن أغضبه، وهو كان خير مني وأوفق وأوقر. ثم تكلم فوا لله ما ترك كلمة أعجبتني إلا قد قالها وأفضل منها حتى سكت.

قال أبو بكر رضي الله عنه ممثل وجهة نظر المهاجرين : "أما بعد : ما ذكرت من خير فهو فيكم معشر الأنصار وأنتم أهله وأفضل منه، ولن تعرف العرب هذا الأمر إلاّ لهذا الحي من قريش هم أوسط العرب نسبا ودارا ،وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم .وأخذ بيدي ويد أبي عبيدة بن الجراح. قال : فما كرهت شيئا مما قال غيرها، كان والله أن أقدم فتضرب عنقي لا يقربني ذلكإلا إثم أحب إلي من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر " .(2)

وظهرت في هذه الأثناء نظرية تدعوا إلى الحل الوسط الذي يهدف إلى إرضاء جميع الأطراف فقد قام رجل من الأنصاروهو(الحباب بن المنذر) فقال : «أنا جذيلها المحك(3)وحذيقها المرجب (4)،منا أمير ومنكم أمير يا معشر المهاجرين ".(5)

والواقع أن نظرية الأميرين هذه غير واضحة المعاني، فنحن لا ندري إذا كان أصحابها يعنون تنصيب أميرين في آن واحد، أو تنصيبهما واحدًا بعد الآخر - أمير من الأنصار ثم أمير من المهاجرين.

---

(1) . الطبري : تاريخ 241،242/2

(2) . السيوطي : تاريخ الخلفاء، ص 63

(3) . الجذل : بالكسر .أصل الشجرة الذي ينصب للجرباء من الإبل فتحتك به للاستشفاء كالتمرغ للدابة، أي أنني ممن يستشفى برأيه.

(4) . شبه نفسه بالنخلة لما عنده من قوم يمنعونه ويحمونه، وعشيرة تشده وترفده ،والغرض من هذا الكلام أنه صاحب رأي يكشف عن المعضلات، فسيشفى برأيه كما تستشفى الإبل الجرباء باحتكاكها بالجذل، وأنه راسخ موطد.

(5) . السيوطي :تاريخ الخلفاء ،ص 63

والحلول التي يكون هدفها إرضاء جميع الأطراف تكون غالبا حلولا عرجاء لأنها تتغاضى عن اعتبارات أخرى أكثر أهمية، وإضعافا لوحدة الأمة. لأن قوّة الأمة مرتبطة بوحدتها وإجماعها. (1)

ولما اشتد اللغط وارتفعت الأصوات خشي عمر بن الخطاب رضي الله عنه اختلاف المسلمين مدَّ يده لأبي بكر وقال له :" والله لا نتولى هذا الأمر عليك، فإنك أفضل المهاجرين وثاني اثنين إذ هما في الغار ،وخليفة رسول الله على الصلاة، والصلاة أفضل دين المسلمين فمن ذا ينبغي له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك . أبسط يدك نبايعك.."(2) وسبقها البشير بن سعد فبايعه، ثم تقاطر القوم لمبايعة أبي بكر حتى أوشكواأن يطئوا سعد بن عبادة الذي أجمعت المصادر على أنه امتنع عن بيعة أبي بكر، فقد حزن لانصراف الأنصار من حوله بعد اجتماعهم عليه، دون أن يشاوروه أو يلتفتوا إليه، بل كادوا في غمرة حماسهم لمبايعة الصديق أن يطئوه بالأقدام، وكان مسنّا ومريضا حتى نادى مناد : «قتلتم سعدا ». وحمله بعض قومه خارج السقيفة. وبعدها انصرف سعد إلى حوران بالشام. ولم يرجع إلى المدينة وتوفي هناك.قيل في خلافة أبي بكر، وقيل بعد ذلك.(3)

وهكذا استطاع أبو بكر وصاحباه أن يطفئوا نار الفتنة التي كانت تهدد الدولة الإسلامية الناشئة في أحرج ظروفها، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مسجى على فراشه لم يدفن بعد.

ويحلو للبعض أن يدّعي أن اجتماع السقيفة كانت فيه أحزابا أربعة مختلفة وهي :

حزب المهاجرين وحزب الأنصار وحزب الشيعة وحزب الأرستقراطية المكية.والحقيقة أن هذه التسميات غير دقيقة فلم يكن المهاجرون حزبا إذ كيف يمثل الحزب ثلاثة أشخاص أبو بكر وعمر وأبوعبيدة ،ومن الذي فوّضهم لهذه المهمة.. إنما حضروا مؤتمر السقيفة مخافة أن ينفرد الأنصار برأي الخلافة بعد رسول صلى الله عليه وسلم ثم يصعب بعد ذلك استدراكه..وكانت وجهة نظرهم أساسها المصلحة العامة التي رأوا أنها لا تتحقق إلا بخليفة لا تختلف عليه العرب.

وأما الأنصار فكانّ لهم في السقيفة وجهة نظر أخرى وليست أفكار حزبية قرشية ولو كانوا حزبا لماذا لم يبق هذا الحزب في المعارضة أو يظهر له وجود وحضور في أحداث جسيمة بعد مؤتمر السقيفة على طول خط التاريخ الإسلامي؟.. فلم يُسمع بحزب الأنصار في أي عصر من العصور التي تلت العصر الأول.

---

(1) . الرفاعي :الدولة الإسلامية في عصر الراشدين .مرجع سابق .ص 22

(2) . الطبري :تاريخ 243/2

(3) . الرفاعي : الدولة الإسلامية في عصر الراشدين .مرجع سابق .ص 38

وأبعد في الخطأ من الزعمين السابقين القول بأن الشيعة كان لهم حزب في اجتماع السقيفة أو وقت حدوثه. ذلك أن الشيعة من حيث هي فرقة سياسية لم تظهر إلا بعد ذلك الوقت بأمد طويل بل لم يتبلور فكر الشيعة إلا بعد معركة كربلاء ومقتل الحسين بن علي فيها.

وأما الحزب الرابع - حزب الأرستقراطية المكية فهوبغير شك لم يوجد بعد هذه الفترة من التاريخ فهل وجد خلالها ؟ الواقع أنه أيضا لم يوجد تجمع يمكن أن يوصف بهذا الوصف. أو آراء يمكن أن تنسب إلى جماعة (مكية) بوصفها هذا خلال اجتماع السقيفة.

وليس أدلَّ على هذا من أن الأستاذ :(ماكدونالد . Macdonald) لم يمثل ولو بشخص واحد للذين ينتمون إلى هذا الحزب، ولم يعرض ولو رأيا واحدا من آرائه. ومهما يكن مراده من هذه التسمية (الأرستقراطيين المكيين) فإن التاريخ السياسي الإسلامي كله لا يعرف جماعة ظهرت تحمل هذا الاسم، ولا تجمعا يضم أشخاصا من المكيين بصفتهم هذه له آراء سياسية.(1)

ولو حسبنا اجتماع السقيفة حسب الخطب التي وردت فيه بالزمن فإنه لم يتجاوز هذا المؤتمر السويعات القليلة فكيف يكون الصراع من أجل السلطة في ساعة من النهار ثم ينتفض الجمع وكلهم رضا بخليفة واحد...؟ !

لم تكن البيعة التي جرت في السقيفة كافية في نظر المهاجرين والأنصار ،وإنما أتبعوها ببيعة أخرى عامة في المسجد الجامع في اليوم التالي.يقول الطبري (2) : «لما بويع أبو بكر في السقيفة وكان الغد جلس أبوبكر ثم قال : أيها الناس وإني قد كنت قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت إلا عن رأي، وما وجدتها في كتاب الله، ولا كانت عهدا عهده إلي الرسول صلى الله عليه وسلم ولكنني قد كنت أرى أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدبّر أمرنا. حتى يكون آخرنا (3) ،وإن الله قد أبقى فيكم كتابه الذي هدى به رسول الله.فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه له،وإن الله قد جمع أمركم على خيركم. صاحب رسول الله، وثاني اثنين إذ هما في الغار، فقوموا فبايعوا، فبايع الناس أبا بكر بيعة العامة بعد بيعة السقيفة " .

---

(1) . أنظر: محمد سليم العوا :في النظام السياسي ...مرجع سابق . ص 74،75

(2) . تاريخ 237/2، وانظر :ابن كثير : البداية والنهاية 248/5

(3) . يشير إلى القول الذي قاله عمر حين بلغته وفاة الرسول فقال :"لما توفي الرسول (ص) قام عمر بن الخطاب فقال :إن رجالا منافقين يزعمون أن رسول الله توفي، وإن رسول الله والله ما مات،= =ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران فغاب عن قومه أربعين ليلة ،ثم رجع بعد أن قيل قد مات.والله ليرجعن رسول الله ،فليقطعن أيدي وأرجل رجال يزعمون أن رسول الله مات".الطبري : تاريخ 232/2

ونحن نرى أن عمر بن الخطاب لم يبسط يده إلى المبايعة إلا بعد أن عرفأن معظمالمهاجرين والأنصار يرون رأيه في أن أبا بكر الصديق أحق الناس بالخلافة.ومن شواهد هذا أن الحاضرين في السقيفة لم يتباطئوا عن متابعة عمر في مبايعته.إلا سعد بن عبادة الذي امتنع عن البيعة طوال حياة أبي بكر..

ثم إن أبا بكر جلس من الغد على المنبر وبايعه الناس البيعة العامة بعد البيعة الخاصة في السقيفة.. وهؤلاء المبايعون هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين جاهدوا في الله حق جهاده، وتعلموا عن الرسول صلى الله عليه وسلم فضيلة الصراحة وعدم السكوت عن قول الحق، ولو كانت الفاصلة بين الرؤوس والأعناق. وقد سمى عمر رضي الله عنه مبايعته "فلتة "لأنها لم تكن بعد إنهاء المشاورة.

قال ابن تيميه شارحا هذا الأمر :"..ومعناه أن بيعة أبي بكر بودر إليها من غير تريث ولا انتظار لكونه كان معينا لهذا الأمر كما قال عمر : " ليس فيكم من تقطع إليه الأعناق مثل أبي بكر. "، وكان ظهور فضيلة أبي بكر على من سواه، وتقديم رسول لله صلى الله عليه وسلم له على سائر الصحابة أمرا ظاهرا معلوما. فكانت دلالة النصوص على تعيينه تغني عن مشاورة وانتظار وتريث بخلاف غيره فإنه لا تجوز مبايعته إلا بعد المشاورة والانتظار والتريث" .(1)

ومع كونها فلتة، لا تجعل مبايعة أبي بكر مأخوذة بالقهر والغلبةوتخلف بعض المهاجرين أو الأنصار على البيعة حينا من الزمن لا يخل بانعقادها ولا يسلب عنها أن تكون مبايعة اختيارية، إذ المدار على رأي الأغلبية هي محل الاعتبار في سائر القوانين الدستورية ولا شك أن الأكثرية الساحقة يومئذ بايعت أبا بكر عن رضا واختيار، ولو جرى الانتخاب بطريق الاقتراع السري على العادة المألوفة اليوم لم يفز بالإمامة غير أبي بكر رضي الله عنه .

أما باقي الأطراف من المدن الأخرى وسائر العرب فلم يكن لهم من إدارة الدولة وتقرير مصير الأمر فيها شئ. فلم يكن معنى الوحدة قد استقر في نفوسهم بعد، وكانت المشاورة معهم عملا قد يؤدي إلى فتنة وإلى خلاف لا يكون له نتيجة إلاّ تدمير الوحدة الناشئة، والتي بدت بوادر الثورة عليها في الفترة الأخيرة من حياة النبي صلى الله عليه وسلم .

وتتحدث بعض الروايات عن تخلف بعض الصحابة من بني هاشم وغيرهم عن مبايعة أبي بكر وعلي.وقصة اجتماعهم على علي في بيت فاطمة، وهجوم عمر عليهم ومصاولته للزبير أولعلي، ومحاولة إغراء

(1) . منهاج السنة 118/3

العباس بأن يجعلوا إليه من الأمر نصيبا يكون له ولعقبه من بعده. والحقيقة أن هذه الروايات بينها خلاف يقطع بعدم صحتها لأنها وضعت بعد ذلك لأغراض سياسية.

ثم إنه تُعارضها روايات أخرى بإسناد قوية تقطع بعدم تخلف علي عن البيعة وإذا كان علي تأخر عن البيعة في السقيفة فإنما كان لشغله بجهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولعله وبني هاشم والزبير عتبوا على أبي بكر ومن معه أنهم لم يباحثوهم أو يشركوهم في اجتماع السقيفة.

وتذكر بعض المصادر أيضا أن عليا تخلف عن بيعة أبي بكر لأنه يعتقد أنه أحق بالخلافة، واستمرت الجفوة بينهما ستة أشهر حتى توفيت فاطمة رضي الله عنها، فاستدعى علي أبا بكر وبايعه في المسجد أمام المسلمين.

ولوكان علي يعتقد أنه أحق بالخلافة لأصرّ على مطلبه ولم يبايع أحدا،وما قبل بعد ذلك بيعة عمر وعثمان.وما شارك الخلفاء الثلاثة في الرأي والقيادة، ولكن عليا كان مع أبي بكر في الدفاع عن المدينة ضد المرتدين، ووكّل إليه قيادة فرقة الأنقاب التي كانت مهمتها حراسة الطرق الموصولة إلى المدينة..وكان وزير عمر ومستشاره، وكان ثاني المبايعين لعثمان بعد عبد الرحمن بن عوف كما سنذكر.

ومهما تختلف الآراء والمذاهب في بيعة أبي بكر فالمهم أن السقيفة قررت أمر الخلافة تقريرا نهائيا. وأرست قواعد وأسس النظام السياسي المتميز الخالص .

وقام أبو بكر رضي الله عنه بعد بيعته ليحدد سياسته في الحكم، وليوضح نهجه المتبع فيما سيأتي من أيام خلال خلافته فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو أهله.ثم قال :(أما بعد أيهاالناس إني قد وليت عليكم ولست بخيركم)(1) وهذا تواضع منه رضي الله عنه مع رفيع منزلته وسمو مكانته بين المهاجرين والأنصار (فإن أحسنت فأعينوني)أمل في الإخلاص والخير لكل المجتمع(وإن أسأت فقوّموني)قبول للنصح والتوجيه والنقد لما فيه صلاح أمور الأمة (الصدق أمانة،والكذب خيانة) صفتان من أسس التعامل السليم في كل أمور الحياة (الضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه(2) حقه إن شاء الله والقوي منكم عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله) العدالة والأمن والأمان للضعيف، والقوي مُقيدة قوته بشرع الله وعدل الحكم، فلا تجبر ولا عتو ولا فساد (لا يدع أحد منكم الجهاد في سبيل الله، فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل) الجهاد لرفع كلمة الله عز وجلّ،ومن تركه فقد ذلّ بسيطرة الكفر والثنية والشرك (ولا تشيع الفاحشة في القوم إلا عمّهم

(1) . ما بين قوسين نص خطبة الصديق ﷺ

(2) . أرحت على الرجل حقه إذا رددته عليه

الله بالبلاء)الفحش والفاحشة، القبيح من القول والفعل ،ومجتمع لا فاحشة فيه هو مجتمع الطمأنينة والأمن والراحة النفسية (أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم) وفي حال خرقها وتجاوزها فلا سلطة إلا فيما أمر الله عز وجلّ..

هذه هي سياسة الصديق رضي الله عنه التي اختطها لنفسه خلال فترته والتي دامت سنتين وأربعة أشهر إلا أربع ليال، حيث توفي رضي الله عنه في المدينة وهو ابن ثلاث وستين، يوم الجمعة لسبع ليال بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة.(1)

استخلاف عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

ترك يوم السقيفة أثرًا واضحًا في ذهن أبي بكر الصديق رضي الله عنه فلما اشتد عليه المرض خاف إن هو ترك أمر الخلافة دون أن يفصل فيه انقسم المسلمون بعضهم على بعض واقتتلوا وأصبحوا أشد خطرا على أنفسهم من أهل الردة، فاستقر رأيه على أن يعهد بالخلافة من بعده لمن يعتقد فيه الكفاية وحسن السياسة، فكان عمر بن الخطاب هو مرشح الخليفة .

ولكن الصديق لم ينفرد بالرأي ويتجاوز حق الأمة في الاختيار ،ولكنه جمع كبار الصحابة وردّ أمرهم إليهم فقال لهم : "إنه قد نزل بي ما ترون ولا أظنني إلاّ ميتا لما ترون بي من المرض، وقد أطلق الله أيمانكم من بيعتي فأمِّروا عليكم من أحببتم فإنكم إن أمّرتم في حياة منيكان أجدر ألاَّ تختلفوا بعدي ".

وقد حاول الصحابة بعد أن ردّ الأمر إليهم أن يجتهدوا ،وقاموا في هذا الأمر فلم يستقم لهم، فرأوا أن يردوا الأمر إليه ويفوضوه في الاختيار وقالوا : " إرأ لنا يا خليفة رسول الله " فأوضح لهم الصديق عظم المسؤولية، وعرض عليهم أمرين ،إما أن يجتمعوا منفردين لاختيار خليفتهم الجديد وإما أن يشركوه معهمفي ا لرأي إن شاؤوا، فقال لهم لا بد لكم من رجل يلي أمركم ويصلي بكم ويقاتل عدوكم فيأمركم فإن شئتم اجتمعتم فأتمرتم ثم وليتم عليكم من أمرتم وإن شئتم اجتهدت لكم رأيي ،والله الذي لا إله إلا هو لا آلوكم في نفسي خيرا . فقال الصحابة للصديق :" أنت خيرنا وأعلمنا فأختر لنا يا خليفة رسول الله "فقال لهم :" سأجتهد لكم رأيي وأختار لكم خيركم إن شاءالله ".

ويؤكد ابن الجوزي في عبارة صريحة واضحة أن أبا بكر أخذ عهدا أوتفويضا من الصحابة قبل أن يقوم بعملية الاختيار إذ قال لهم : " فعليكم عهد الله على الرضا "قالوا : " نعم ".(2)

---

(1) . شوقي أبو خليل :في التاريخ الإسلامي . ص 217،218

(2) . مناقب أمير المؤمنين .ص 55 عن الرفاعي:الدولة الإسلامية ....مرجع سابق .ص 47

وبعد هذا التفويض قام الصديق بالإشراف على عملية الاختيار على أسس إسلامية خالصة تراعى فيها مصلحة الإسلام والمسلمين.ولا اعتبار فيها للأثرة والقرابة الشخصية،فلم يستسلم لرأيه الذي يقوده إلى اختيار عمر. بل أراد أن يستوثق ويلتزم المشورة ويتزود برأي الصحابة. فاجتمع بكبار المهاجرين والأنصار واحدا بعد الآخر على انفراد ليسمع منهم دون حرج، أوتأثر أحدهم بغيره.

فدعا عبد الرحمن ابن عوف رضي الله عنه . يقول ابن سعد :" أن أبا بكر لما استعزَّ به .(أي لما اشتد به المرض) دعا عبد الرحمن فقال : أخبرني عن عمر بن الخطاب، فقال عبد الرحمن : ما تسألني عنه أمر إلا وأنت أعلم به مني. فقال أبو بكر وإن. فقال هو والله أفضل من رأيك فيه. ثم دعا عثمان فقال : أخبرني عن عمر فقال : اللهم علمي به أن سريرته خير من علانيته، وأنه ليس فينا أحد مثله، وشاور معهما سعيد بن زيد، وأبا الأعور، وأسيد بن الحضير وغيرهما من المهاجرين والأنصار.. " .(1) فأثنوا جميعا على عمر.

ويمكننا أن نعتبر هذه المداولات والمشاورات هي المرحلة الأولى من البيعة، وهي مرحلة الترشيح وبيعة الخاصة التي تصدر عن كبار ممثلي الأمة، وأهل الحل والعقد.

وبعد أن تأكد أبو بكر. رضي الله عنه . من إجماع كبار الصحابة على عمر، وطمأن المتحفظين منهم إلى أن غلظته لن تكون إلا في الحق سجل ما انتهى إليه من قرار في وثيقة، وأمر أن تقرأ على المسلمين في المسجد ليصدقوا عليها، وهذا يمثل البيعة العامة..فدعا عثمان بن عفان رضي الله عنه . وأملاه كتاب عهده إلى عمر وهاك نصه : " بسم الله الرحمن الرحيم.هذا ما عهد به أبو بكر خليفة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم عند آخر عهده بك لدنيا، وأول عهده بالآخرة، وفي الحال التي يؤمن فيها الكافر، ويتقي الفاجر. إني استعملت عليكم عمر بن الخطاب، فإن برَّ وعدل فذلك علمي به ورأيي فيه، وإن جار وبدل فلا علم لي با لغيب، والخير أردت، ولكل امرئ ما اكتسب (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون).. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ". ثم أمر بالكتابفختمه، ثم أمر عثمان فخرج با لكتاب مختوما، فبايع الناس ورضوا به، ثم دعا أبو بكر عمر خاليا فأوصاه بما أوصاه، ثم خرج من عنده فرفع أبو بكر يديه وقال : " اللهم إني لم أرد بذلك إلا صلاحهم،وخفت عليهم الفتنة فعملت فيهم بما أنت أعلم به،واجتهدت لهم رأيا فوليت عليهم خيرهم، وأقواهم عليهم، وأحرصهم على ما أرشدهم، وقد حضرني من أمرك ما حضر،فاخلفني فيهم فهم عبادك، ونواصيهم بيدك، أصلح اللهم ولاتهم، واجعله من خلفائك الراشدين، وأصلح له رعيته ".(2)

(1) . الطبقات الكبرى 199/3، الطبري:تاريخ 2 /352

(2) . السيوطي:تاريخ الخلفاء . ص 77

ونلاحظ في اختيار أبي بكر لعمر. رضي الله عنه . ملاحظتين هامتين :

أولهما :لقد كان مقصدأبي بكرفي طلبه للصحابة في اختيار خليفة بعده بحضوره شخصيا وقبيل وفاته وحدة للمسلمين، واتفاق كلمتهم حتى لا يختلفوا من بعده ويتنازعوا أمر الخلافة، كما حدث في سقيفة بني ساعدة أثناء توليته. فلئن كانت بيعته فلتة وقى الله المسلمين شرَّهافلربما يشتد الخلاف بين المسلمين بعده على من يكون خليفة له. سيما وأن المستحقين للخلافة كثير، وأن صور حروب الردَّة وما وقع فيها من تشتت العالم الإسلامي بعد وفاة النبي . صلى الله عليه وسلم . وظهور المطالبين با لزعامة من غير المستحقين، والمدعين للنبوة من الكذبة والدجَّالين ما زال ماثلا في الأذهان، ويدعوا بإلحاح إلى التفكير الدائم فيما يثبت دعائم وحدة المسلمين، ويبعد شبح اختلافهم وتنازعهم، خاصة وأفواج المسلمين تتوجه لفتح العالم شرقا وغربا..ووحدة القيادة في هذه الظروف مطلب ضروري للمحافظة على وحدة الصف، وجمع الكلمة، وتحقيق النصر حتى لا ينهدَّ البُنيان بعد تمامه، ولا تسقط أركان الدولة بعد بنائها..وهومعنى قول أبي بكر. رضي الله عنه . بعد تولية عمر رضي الله عنه :"اللهم إني لم أرد بذلك إلا صلاحهم، وخفت عليهم الفتنة، فعملت فيهم بما أنت أعلم، واجتهدت لهم رأيي فوليت عليهم خيرهم، وأقواهم عليهم " .

ثانيتهما : هو ما نلاحظه من إلحاح أبي بكر. رضي الله عنه . على تحقيق خلافة عمر. رضي الله عنه . على رضا الناس فحسب الروايات السابقة نرى أن أبا بكر شاور الصحابة في مبدإ الاختيار ذاته عندما اقترح عليهم أن يختاروا خليفة في حياته، حتى لا يختلفوا بعد مماته، فلما قبلوا بالمبدأ طلبوا إليه أن يختار هو لهم، فهو لم يختر لهم بادئ الأمر، ولم يجبرهم على واحد بعينه، إذ لم تكن له مصلحة في ذلك، ولو كانت له مصلحة في العهد إلى الخليفة من بعده لاختار أحد أقربائه وهو ما لم يذكره التاريخ.(1)

وهكذا أصبح عمر الخليفة الثاني للمسلمين بعد الصديق ـ باختيار من كبار الصحابة وإجماع من عامة المسلمين.

(1) . عبد القادر جدي : حرية الممارسة السياسية ..(رسالة ماجستير) . مرجع سابق.ص112،111

وأما شبهة المستشرقين في أن أبا بكر جعل الخلافة من بعده لعمر ردًّا لصنيعه معه في مؤتمر السقيفة حين سارع لمبايعته فإنها لاتقوم أمام المنطق السليم، فلو أن في الأمر مؤامرة لما كانت تلك الاستشارة من أبي بكر لكبار الصحابة ،ولما كان الانتظار والأخذ والردُّ، هذا فضلا عن أن الرواية(1)التي تقول إن أبا بكر ترك الأمر لأصحاب الرأي من الصحابة ليختاروا من بينهم من يصلح ونفضه يده منه تنفي تماما ذلك.ولوكان في الأمر مؤامرة ما سمع كبار الصحابة بتنفيذها، وما أثنى الصحابة على عمر خيرا حتى علي . رضي الله عنه . وما بايع المسلمون عمر. رضي الله عنه . وعلى ذلك فإن زعم المستشرقين بتآمر أبي بكر وعمر إنما هو زعم كاذب وافتراء عظيم.

بعد أن بويع عمر بن الخطاب بالخلافة صعد منبر المسجد النبوي وخطب خطبة موجزة حدد فيها معالم حكمه وأركان سياسته الداخلية والخارجية ،فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : " إني قد وليت أموركم أيها الناس، فأعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدِّي على المسلمين فأما أهل السلامة والدين والقصد فأنا ألين لهم من بعضهم بعضا..ولكم عليَّ أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذوني بها، لكم عليَّ أن لا أجتبي شيئا من خراجكم، ولا مما أفاء الله عليكم إلا من وجهه، ولكم عليَّ ألاألقيكم في المهالك، ولاأجمركم في ثغوركم(2) وإذا غبتم في البعوث فأنا أبوالعيال حتى ترجعوا إليهم. فاتقوا الله عباد اللهوأعينوني على أنفسكم بكفِّها عنِّي، وأعينوني على نفسي بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإحضاري النصيحة فيما ولاني الله من أمركم، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.." .(3)

وهكذا وضع عمر بن الخطاب في بيانهذا النقاط على الحروف، فالشدة على أهل الظلم والتعدي، واللين لأهل العفاف والصلاح،والمال مال الله يؤتى ويصرف في موضعه ويصان.والجنود لن يغيبوا عن عيالهم، وهوفي غيبتهم أبوالعيال، والدفاع عن حدود الدولة وحمايتها من مسئوليته، والشورى ورأي الناس ورقابتهم عليه أساس حكمه وعمله.

---

(1) . يروى "أن عثمان ﷺ خرج بالكتاب بعد أن أ ملاه عليه أبو بكر فأظهره للناس مختوما فقال:أتبايعون لمن في هذا الكتاب .قالوا : نعم . وقيل : إن أبا بكر أطلّ عليهم من طاقة بيته فقال : أيها الناس إني قد عهدت عهدا أفترضونه .فقالوا : رضينا يا خليفة رسول الله.وقام علي وقال : نرضى....وقيل :إن أبابكر أرسل الكتاب مع مولاه ومعه عمر ،وكان عمر يقول : أنصتوا واسمعوا لخليفة رسول الله فإنه لم يألكم نصحا .فسكن الناس، فلما قرئ عليهم الكتاب سمعوا وأطاعوا ". أنظر:ابن الأثير: الكامل في التاريخ 2 /426 هـ

(2) . التجمير:هو إبقاء الجنود في جبهات القتال مدة طويلة

(3) .أبويوسف:الخراج .ص140 عن :شوقي أبو خليل :في التاريخ الإسلامي .مرجع سابق.ص 231

وقد التأم شمل المسلمين في عهد عمر، وتوحدت كلمتهم، وكانوا صفا على أعدائهم، فكان عهدا للاستقرار السياسي والفتح العظيم لما تميز به من آيات العدل والنزاهة والزهد.

إستخلاف عثمان بن عفان . رضي الله عنه .

عندما طعن عمر بن الخطاب . رضي الله عنه . على يد أبي لؤلؤة المجوسي في أواخر شهر ذي الحجة من السنة الثالثة والعشرين من الهجرة هرع إليه بعض الصحابة يطلبون منه أن يستخلف، ولكنه أبى بادئ الأمر وقال :" إن استخلف فقد استخلف من هوخير منِّي . يعني أبا بكر. وإن أترك فقد ترك من هو خير منِّي . يعني رسول الله . ولن يضيع الله دينه.. ".

وتدبر عمر. رغم جراحه النازفة . أي النهجين يختار..هل يتحمل المسئولية حيًّا وميِّتًا ؟ أم يترك الأمة عرضة للاختلاف.. وأخيرا استقر رأيه على أمر يجعل مسئولية الأمة في يدها ويد ممثليها، وفي نفس الوقت يقيها بوائق الشقاق والاختلاف...ففوض الأمر إلى الستة الذين مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهوعنهم راضٍ وهم : "علي ابن أبي طالب . وعثمان بن عفان . وسعد ابن أبي وقاص . وعبد الرحمن بن عوف . والزبير بن العوام . وطلحة ابن عبيد الله .وعبد الله ابن عمر على أن يكون له من الأمر شيء، وأجَّلهم ثلاثا بعد وفاته لا يزيدون عنها وأمر صهيبا(1) أن يصلي با لناس وأوصاهم قائلا :"فإذا وليتم واليا فأحسنوا مؤازرته وأعينوه " .

وكلَّف عمر خمسين من الأنصار على رأسهم أبوطلحة الأنصاري أن يكونوا رقباء ومتابعين لمجلس الستة، وجعلهم من الأنصار ضمانا للحيدة لأن المرشحين كلهم من قريش، وأمر كذلك المقدادابنعمرو الكندي أن يقوم على رؤوسهم.

وقد وجَّه الدكتور طه حسين في كتابه « الفتنة الكبرى » (2) نقدا إلى مجلس الشورى الذي شكَّله عمر فقال : " إنه ما كان ينبغي أن يكون مقصورا على الأعضاء الستة، وكان من الأفضل أن يضم عددا آخر من المستشارين، وقال إن مدة الثلاثة أيام لم تكن كافية وكان الأفضل أن ينفسح الوقت لتبادل الرأي ".

ولكننا نقول إن عمر كان أقرب للأمور وأدرى بها، كان يدرك أنه لو وسع نطاق الشورى ومدَّ لها في الأجل فسوف تتسع هوة الخلاف، ولن يلتقي القوم أبدا، ولم يكن القوم في حاجة إلى مزيد من الوقت للتعرف على أشخاص المرشحين فكل منهم له سابقته وفضله المعروفين للجميع. وقد اتجه القوم على

(1) . صهيب بن سنان بن مالك من بني النمر بن قاسط، من أرمى العرب سهما، وهو أحد السابقين إلى الإسلام .شهد بدرا وأُحدا والمشاهد كلها . توفي بالمدينة سنة 38هـ .

أنظر :ابن عبد البر :الاستيعاب في معرفة الأصحاب 147/5

(2) . ص 60،62

العكس إلى تضييق نطاق الشورى حتى انحصر في شخص واحد، وكاد الناس أن يفتتنوا لولم ينحسم الأمر في صبيحة اليوم الرابع.(1)

وامتد النقاش داخل المجلس، ولم يصل المجتمعون إلى قرار وفطن ابن عوف إلى عِلَّة ذلك وهي أن لكل منهم حق الترشيح والتصويت فمن الطبيعي أن يختار نفسه ولا يلتقوا أبدا. فاقترح عليهم أن يتنازل أحدهم عن حقه في الترشح على أن يختار واحدا من الخمسة الباقين. فقال لهم :أيكم يخلع نفسه منها ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم ؟ فلما سكتوا قال : أنا أخلع نفسي فارتضى الباقون وأخذوا عليه عهدا ألا يخص ذا قرابة ولايتأثر بالهوى .(2)

وتنازل بعد ذلك الزبير وسعد عن حقهم في ا لترشح بعد أن أحسوا بضآلة فرصتهم،وأصبح الاختيار محصورا في عثمان وعلي.أما طلحة بن عبيد الله فقد كان مسافرا ولم يحضر الاجتماع. ووسع عبد الرحمن بن عوف نطاق الشورى فخرج من مقر المجلس وسأل المهاجرين والأنصار وغيرهم من ضعفاء الناس ورعاعهم. فأما أهل الرأي فأتاهم مستشيرا وتلقى غيرهم سائلا يقول : " من ترى الخليفة بعد عمر؟ فلم يلق أحدا يستشيره ولا يسأله إلا ويقول عثمان ".(3)يقول الطبري في ذلك : « دار عبد الرحمن لياليه يلقى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن وافى المدينة من أمراء الأجناس وأشراف الناس يشاورهم.ولا يخلو برجل إلا أمره بعثمان « .(4) ويؤكد السيوطي ذلك فيقول : " رُوي أنّ الناس كانوا يجتمعون في تلك الأيام إلى عبد الرحمن بن عوف يشاورونه ويناجونه، فلا يخلو به رجل ذو رأي فيعدل بعثمان أحدا"(5)

وبعد انتهاء الأجل الذي حدده عمر جاء عبد الرحمن بن عوف بعد أن طاف هذه الليالي يستأنس برأي أصحاب رسول الله ومن وافى المدينة من أمراء الأجنادوأشراف الناس وقت صلاة الصبح إلى المسجد حيث اجتمع سائر أصحابه ولما ازدحم المسجد بالناس قام عبد الرحمن فقال : " أيها الناس إن الناس قد أحبوا أن يلحق أهل الأمصار بأمصارهم وقد علموا أميرهم ".(6)

---

(1) . الرفاعي : عصر الخلافة الراشدة.مرجع سابق .ص 43

(2) . الطبري :تاريخ ،2 /582، ابن الأثير : الكامل .69/3

(3) . ابن قتيبة: الإمامة والسياسة.ص 30

(4) . الطبري : تاريخ ،2 /582

(5) . تاريخ الخلفاء .ص 143

(6) . الطبري : تاريخ 2 /583، ابن الأثير :الكامل 70/3

وأمام الملأ وجَّه ابن عوف سؤال محرجا لكلا المرشحين مبتدئا بعلي، فقال :عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب لله وسنة رسوله، وسيرة الخليفتين من بعده ؟ فقال علي : أرجو أن أفعل بمبلغ علمي وطاقتيفوجه نفس السؤال لعثمان فقال : نعم. فأعلن عبد الرحمن بناء على هذه الإجابة وما تكوَّن لديه من آراء المسلمين بيعة عثمان، وتابعه سائر المسلمين وفي مقدمتهم عليٌّ نفسه.(1)

والعجيب أن الشيعة يطعنون في قبول عثمان بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وسنة الشيخين من بعده. لأن التقليد من العالم لغيره حرام، بينما رفض علي هذا التقليد بقوله : أجتهد رأيي .

ويحلل الباقلاني ذلك باحتمالات ثلاثة :

أولها :إذا كان التقليد حراما فإن الصحابة أعلم بذلك وأتقى لله من أن تفعل الحرام وتجيزه، وإذا كان علي قد امتنع عن التقليد بالشرط الذي وضعه عبد الرحمن لقال قولا آخر غير الذي فعل مثل : " هذا حرام في الدين لا يحل فعله ".

والاحتمال الثاني : . إن صحَّت الرواية قد يكون قصد عبد الرحمن تقليد الشيخين في السير بالعدل والإنصاف دون تقليد في الأحكام لأن سيرة أبي بكر وعمر ترك التقليد، ومما يؤكد هذا أن أحكام أبي بكر وعمر في كثير من الفقهيات مختلفة، فقبل عثمان لما فهمه من هذا القصد.

الاحتمال الثالث : فهو أن عبد الرحمن لم يشك أيضا في أن عليا سيسلك طريق الخليفتين في عد لهما وإنصافهما وإنما قال ذلك ليقرره ويؤكده وليقع الرضا من الجماعة ويستميل قلوب السامعين، وقدر علي أنه دعاه إلى التقليد في الأحكام بينما يعلم أن عمر لم يقلد أبا بكر في مسائل الحرام والحلال، فلم يقبل أن يدعوه عبد الرحمن إلى التقليد وترك الاجتهاد فامتنع عن قبول الشرط.

والحكم با لتقليد جائز عند الفقهاء فهي مسألة اجتهاد فلعلَّ عثمان وعبد الرحمن كانا يريان جواز التقليد ولايرى علي ذلك، وعلى هذا يكون عبد الرحمن مصيبا في اشتراطه وتقريره وتأكيد الأمر، ويكون عليا مصيبا في الامتناع منه ويكون عثمان مصيبا أيضا في قبول الاشتراط.(2)

ويقول الباقلاني أيضا في شأن بيعة عثمان وأنها تمت بشورى المسلمين :"فإن قال قائل ما الدليل على صحة عقد عبد الرحمن لعثمان ؟ قيل له : الدليل على ذلك أنهم تشاوروا ليالي وأياما، ونظروا في أمرهم

(1) . المصدر نفسه

(2) . التمهيد .ص 516،517

ورضوا بعبد الرحمن أمينا ومشيرا في هذا الباب، وعلمنا ضرورة أنه عقد لعثمان وأن الباقين منهم ومن سائر الأمة انقادوا لعثمان وخاطبوه بأمير المؤمنين " .(1)

وهكذا استطاع عبد الرحمن بن عوف أن ينفذ خطة الشورى بما دلَّ على شرف عقله ونبل نفسه وإيثاره مصلحة المسلمين العامة على مصلحته الخاصة ونفعه الفردي.وترك عن طواعية ورضا أعظم منصب يطمح إليه إنسان في الدنيا ليجمع كلمة المسلمين، وفق أول مظهر من مظاهر الشورى المنظمة في اختيار من يجلس على عرش الخلافة ويسوس أمور المسلمين، فهو قد اصطنع من الأناة والصبر والحزم وحسن التدبير ما كفل له النجاح في أداء مهمته العظمى، ممثلا فيما يأتي :

أولا : بسط برنامجه في أول جلسة عقدها مجلس الشورى في دائرة الزمن الذي حدده له عمر، وبذلك أمكنه أن يحمل جمع أعضاء الشورى على أن يدلوا برأيهم، فعرف مذهب كل واحد منهم ومرماه، فسار في طريقه على بيِّنة من أمره .

ثانيا :خلع نفسه وتنازل عن حقه في الخلافة ليدفع الظنون ويستمسك بعروة الثقةالوثقى.

ثالثا :أخذ في تعرف نهاية ما يصبوا إليه كل واحد من أصحابه وشركائه في الشورى فلم يزل يقلب وجوه الرأي معهم حتى انتهى إلى شبه انتخاب جزئي، فاز فيه عثمان برأي سعد بن أبي وقاصورأي الزبير بن العوام،فلاحت له أغلبية آراء الأعضاء الحاضرين معه .

رابعا :عمد إلى معرفة كل واحد من الإمامين : عثمان بن عفان، وعلي في صاحبه با النسبة لوزنه من سائر الرهط الذين رشحهم عمر، فعرف من كل واحد منهما أنه لا يعدل بصاحبه أحدا إذا فاته الأمر.

خامسا :أخذ في تعرف رأي من وراء مجلس رأيها، ثم من عامتها وضعفائها، فرأى أن الناس لا يعدلون أحدا بعثمان مبايع له، وبايع الناس بيعة عامة عن رضا واختيار.(2)

وتولى عثمان الخلافة وهويستقبل المحرم سنة أربع وعشرين في أثبت ما روى المؤرخون.

بيعة علي . رضي الله عنه .

لما استشهد عثمان . رضي الله عنه . بقيت المدينة بلا أمير، وسيطر الثوار على زمام الأمور، ونظر أهل المدينة فلم يجدوا من هوأحق بالخلافة من علي، فهوأحد الستة الذين رشحهم عمر بن الخطاب لتولي

(1) . المصدرنفسه:ص 514

(2) . صادق عرجون : عثمان بن عفان. مرجع سابق .ص 70

الخلافة وهو واحد من اثنين انتهى إليهم الناس بعد أن استطلع عبد الرحمن بن عوف رأيهم أما وقد مات عثمان فلا بد أن يبايعوا علياً...فهرع إليه وجوه المهاجرين والأنصار "وناشدوه الله في حفظبقية الأمة وصيانة دار الهجرة..ورأى القوم ذلك لعلمهم وعلمه بأنه أعلم من بقي وأفضلهم وأولاهم بهذا الأمر".(1)

وكان علي . رضي الله عنه . أمام موقفين اثنين لا ثالث لهما :الأول منهما : أن يصير على رفض الأمر وعدم الموافقة على البيعة، وعندها سيبقى وضع المدينة كما هو يتسلط عليه المتمردون ويتصرف في المدينة الأعراب والمنحرفون.بل ربما ازداد الوضع سوءا وهوالمحتمل فيعيث هؤلاء العابثون في الأرض فسادا، ويزداد قتلهم للناس، وقد ارتكبوا أكبر جريمة وهي قتل الإمام ظلما وعدواناً..أما الموقف الثاني : وهوقبول الخلافة والرضا با الأمر الواقع وذلك من جل إنقاذ المسلمين من فتنة عمياء يمكن أن تحدث فيما لورفض، والخوفمن تفرق الكلمة، وإعادة الثقة والطمأنينة إلى نفوس سكان دار الهجرة، وإبعاد المتمردين، والأعراب المنحرفين عن المدينة وإقرار الأمن، وإعطاء الهيبة للخلافة...(2)

وقبل علي . رضي الله عنه . أن يتحدى الفتنة الطاغية، والتمرد الآبق.. وتحمل مسئولية الخلافة بروح فدائية عالية..حملهاوهيجريحة..وهي مهددة بفتنة أحكم الطابور الخامس(3) من المتآمرين صياغتها، وأتقن تنفيذها.واشترط عليهم أن تنعقد له البيعة وفقا لمبدأ الشورى الذي سار عليه الخلفاء الثلاثة السابقون.

وأول هذه الشروط أن تكون بيعة عامة في المسجد فقال لهم : " في المسجد فإن بيعتي لا تكون خفية، ولا تكون إلا عن رضا المسلمين ".(4) وأن تصدر هذه البيعة أولا عن كبار الصحابة من أهل بدر، فقال للثوار :ليس هذا الأمر لكم..وإنما هولأهل بدر أين طلحة والزبير؟ فجاء ا وبايعاه وتابعهما المهاجرون والأنصار وعامة الناس.

---

(1) . الباقلاني : التمهيد .ص 549

(2) . محمود شاكر : التاريخ الإسلامي 3/260،259

(3) . الطابور الخامس :اصطلاح يطلق اليوم على فئة تعمل على هدم كيان المجتمع من الداخل ..وقد عرفت هذه العبارة لأول مرة عام 1939 عندما نشبت الحرب الأهلية في اسبانيا من سنة 1936 إلى1939بقيادة (فرانسيس فرانكو) ضد الحكم الجمهوري ..ولما سئل أحد قادة فرانكو وهو (إميلو ميلو) عن خطته لمهاجمة العاصمة الإسبانية مدريد قال : سأهاجمها في أربعة طوابير وطابور خامس داخل المدينة مدريد . ولما سئل عن الطابور الخامس الموجود داخل المدينة كيف دخلها قال :لم أقصد طابورا خامسا عسكريا، بل فئة من سكان المدينة غايتها تثبيط الهمم، وترويج الشائعات، وإثارة البلبلة ..وفي 28آذار 1939 سقطت مدريد بيد إميلوميلو ،وعرف العالم كله اصطلاحا جديدا هو " الطابور الخامس ".

(4) . الطبري : تاريخ 2 /696

وهناك بعض الراويات تشير إلى أن الصاحبين (طلحة والزبير) بايعا مكرهين. ولكننا لا نعتقد أن الأمر بهذه الصورة فربما كان هناك شيء من الإلحاح والضغط من جانب الثوار ليحسموا الأمر، لكنه لا يصل إلى درجة الإكراه.فهناك كثير من الصحابة امتنعوا عن البيعة وهناك فرق بين الامتناع والرفض..مثل عبد الله ابن عمر، ومحمد ابن مسلمة الأنصاري، وسعد ابن أبي وقاص ..ولم يتعرض لهم أحد بِشرٍّ، بالإضافة إلى أن عليا. رضي الله عنه لا يقبل بيعة أناس مكرهين، وهويعلم أن المستكره لا يلزم بشيء أمام الشرع.

وإذا كانت بيعة علي قد تمت بأغلبية الصحابة وأهل الأمصار فإن ذلك لا يمس من دستوريتها، فرأي الأغلبية . كما هومقرر في أرقى الأساليب الديمقراطية . حُجَّة على غيرهم..وكان علي سمحا كريما مع الممتنعين عن البيعة فلم يهجهم أويقدح في تصرفهم، بل كان ديمقراطيا . غن صح التعبير. إذْ اكتفىبقوله عنهم :" أولئك قوم خذلوا الحق ولم ينصروا الباطل" .

الفصل الثاني:

حماية الدولة الإسلامية

الخطر الخارجي : تأمين الحدود وتسيير جيش أسامة

في السنة الثامنة للهجرة بعث الرسول صلى الله عليه وسلم الحارث بن عمير الأزدي بكتابه إلى حاكم بُصرى[1] الغساني يدعوه إلى الإسلام، إلا أن الحارث أهين ثم قتل في بلاد الغساسنة،فلماعلم الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك، اشتد عليه الأمر، وجهز جيشا قوامه ثلاثة آلاف مقاتل وعين عليه ثلاثة من الأمراء هم زيد بن حارثة فإن أصيب فجعفر بن أبي طلب، فإن أصيب فعبد لله بن رواحة.

سار هذا الجيش لتأديب الغساسنة، ولما وصل المسلمون إلى حدود الشام فوجوا بحوالي مائة ألف من العرب ومثل هذا العدد من الروم، ومع ذلك خاض المسلمون المعركة غير المتكافئة واستشهد ثلاثة من قادتهم، وأصبح فناء القوة الإسلامية مؤكدا إذا استمرت المعركة دون أن تحقق هدفها، وتولى زمام القيادة خالد بن الوليد فآثر الحفاظ على سلامة قواته فأثار الغبار خلف قوات النبي صلى الله عليه وسلم حملة كبيرة إلى تبوك تتكون من أربعين ألف مقاتل مما جعل قوات الروم وأتباعهم من العرب يحجمون عن مقاتلتهم، وقد أقام النبي صلى الله عليه وسلم في تبوك أكثر من عشرة أيام عقد خلالها معاهدات مع أمراء تلك الجهات على أن يدفعوا الجزية إليه مقابل أمانهم على أرواحهم ودينهم وأموالهم، كما توجه خالد بن الوليد بفرقة من الجيش إلى دومة الجندل[2] ففتحها.

وواصل الرسول صلى الله عليه وسلم جهوده لتأمين الحدود الشمالية فرتب حملة لتذهب إلى مؤتة وتثأر لشهداء حملة زيد بن حارثة، وجعل قيادتها لابنه أسامة وانتدب لها كثيرا من وجوه الصحابة من المهاجرين والأنصار. ولكن المرض عاجل النبي صلى الله عليه وسلم قبل سفرها، فألح كثيرا على تسفيرها، وثقل عليه المرض فلم تسافر ومات وهي معسكرة خارج المدينة بالجرف(3)،فلما تمت البيعة لأبي بكر رضي الله عنه كان تسفير هذه الحملة من أول ما اهتم له تنفيذا لعزيمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره.

---

(1) . بصرى :من أعمال دمشق وهي مدينة حوران مشهورة عند العرب قديما وحديثا ،، ذكرها كثير في أشعارهم . أنظر :(ياقوت : معجم البلدان 522/1)

(2) . دومة الجندل :مدينة بين دمشق والمدينة المنورة..... (ياقوت : معجم البلدان 2 /554

(3) . الجرف :موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام ....(.معجم البلدان 2 /149)

مضى ثلاثة أيام على وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أبوبكر الجيش با لحركة والسير إلى الجهة التي أمره رسول الله، إذ نادى مناديأبي بكر:" ألا لا يبقين بالمدينة أحد من جند أسامة إلا خرج إلى عسكره بالجرف ".[1]

أشار أكثر الصحابة ومنهم أسامة على أبي بكر أن يؤجل بعث جيش أسامة لاحتياجه إليه وخاصة عندما ترامى إلى المدينة نبأ انتفاض العرب واليهود والنصارى وتمردهم على حكم المدينة، فقالوا يوجهون الكلام لأبي بكر: " إن هؤلاء جل المسلمين، والعرب على ما ترى قد انتفضت بك، فليس ينبغي أن تفرق عنك جماعة المسلمين " قال أبوبكر: "والذي نفس أبي بكر بيده لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولولم يبق في القُرى غيري لأنفذته " .واعترض بعض الأنصار على تولية أسامة إمارة الجيش لصغر سنه، فقد كان في نحوالعشرين من عمره وطلبوا من عمر بن الخطاب أن يبلغ أبا بكر ليولي عليهم رجلا أقدم سنا من أسامة، لكن أبا بكر أبى شديد الإباء وصمم على تنفيذ البعث تحت إمرة أسامة وغضب غضبا شديدا ووثب إلى عمر يقول له :"ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب ! !استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرني أن أنزعه ".

وهذا الحديث في رواياته المختلفة يصور لنا سياسة أبي بكر عندما تولى الخلافة، وهذه السياسة تتلخص في قوله لفاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم حين سألته ميراثها من أبيها:" لست تاركا شيئا كان رسول الله يعمل به إلا عملت به، فإني أخشى إن تركت شيئا من أمره أن أزيغ ".[2]

سمع الناس مقالة عمر بعد عوده إليهم بالجرف يبلغهم رسالة أبي بكر فلم يكن لهم إلا الإذعان لأمر الخليفة، وخرج أبوبكر بعد ذلك حتى جاء العسكر، فأشخصهم وشيعهم وهو ماشٍ وأسامة راكبليزيدهم لإمارة أسامة إذعانا وتسليما، وكأنما غلب أسامة الحياء أن يرى هذا الشيخ الوقورصاحب رسول الله وخليفته على المسلمين يسير إلى جانبه، ودابته من ورائه يقودها عبد الرحمن بن عوف فقال:"يا خليفة رسول الله والله لتركبن أو لأنزلن . قال أبوبكر :والله لا تنزل،ووالله لا أركب، وما علي أن أغبر قدمي في سبيل اللهساعة ". فلما آن له أن يودع الجيش قال لأسامة:" إن رأيت أن تعييني بعمر فافعل"، فأذن أسامة لعمر أن يدع الجيش وأن يرجع مع أبي بكر.[3]

---

(1) . الطبري : تاريخ 2 /244

(2) . الذهبي : تاريخ الإسلام 591/1، ابن العربي : العواصم من القواصم .ص 49

(3) . محمد حسين هيكل : الصديق أبو بكر .ص 95

فلما آن لأبي بكر أن يدع الجيش وقف في رجاله خطيبا وقال: " أيها الناس قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني: لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تفسدوا، ولاتمثلوا، ولاتقتلوا طفلا ولا شيخا ولا امرأة، ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام، فإذا أكلتم منه شيئا بعد شيء فاذكروا اسم الله عليه، وتلقون قوما قد فحصوا أواسط رؤوسهموتركوا حولها مثل العصائب، فاخفقوهم بالسيف خفقا[1].. اندفعوا باسم الله، أقناكم الله الطعن والطاعون ".[2]

وقال لأسامة وهو يوشك أن يتحرك بالجيش: " إصنع ما أمرك به نبي الله صلى الله عليه وسلم ، إبدأ ببلاد قضاعة، ثم إيت آبل[3]، ولا تقصرن في شيءمن أمر رسول الله، ولا تعجلن لما خلفت من عهده ".

سار أسامة ومن معه إلى بلاد قضاعة وأخافهم وغنم منهم ،واستمر في بعثه أربعين يوما ثم عاد ظافرا منتصرا بعد أن حقق الأغراض التي أرسل البعث من أجلها، وهوتأمين التخوم بين العرب والروم، وإرهاب العدو حتى لا تحدثه نفسه باختراق هذه الحدود، كما حقق بعث أسامة غاية أخرى عارضة ولعلها لم تغب عن ذهن أبي بكر، وهي إظهار قوة المدينة في نظر القبائل التي تعيش في الشمال من المدينة، فقد قال العرب: " لولم يكن للقوم قوة ما أرسلوا جيوشهم تغير على من بعد عنهم من القبائل القوية ".!

الخطر الداخلي: حركة الردة

في أواخر حياة الرسول صلى الله عليه وسلم بدت بوادر حركة مضادة، وما لبثت أن اتسع نطاقها، وازداد خطرها بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، حتى انتشرت في أرجاء كثيرة من شبه الجزيرة العربية، وكانت هذه الحركة نكسة أصابت انتفاضة الإسلام بينما كان المسلمون يقدمون على انطلاقة جديدة تخرج بالإسلام من حدود الجزيرة العربية الضيقة إلى عوامل أرحب وآفاق أوسع..

(1) . لم نر تفسيرا لهذا، ويتبادر لنا أن هذا كان علامة غدر أو علامة عداء .

(2) . عن بعث أسامة أنظر: الطبري : تاريخ 2 /245، ابن الأثير: الكامل 2 /334

(3) . آبل :بلدة أو موضع في نواحي البلقاء ومؤتة، وهو في جنوب بلاد الأردن اليوم

والواقع أن هذه الحركة اختلفت في بواعثها وصورها وأساليبها ووسائلها وزعاماتها، ولكنها كلها اتفقت في أنها أصبحت خطرا على الإسلام وعلى الوحدةالدينية والاجتماعية والسياسية التي ظهرت في الجزيرة العربية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم .[1]

وقد اتخذت الردة صورتين لا ثالث لهما : إدعاء النبوة... والامتناع عن أداء الزكاة.. ويتحدث ابن أعثم الكوفي عن الردة فيذكر أنها نوعان فقط فيقول : " ارتدت العرب على أعقابها كفارا، فمنهم من ارتد وادعى النبوة، ومنهم من ارتد ومنع الزكاة" .[2]

1. إدعاء النبوة

كان ادعاء النبوة أسبق النوعين ظهورا...فقد بدأت طلائعها من أيام النبي صلى الله عليه وسلم في أنحاء متفرقات من الجزيرة، لأن هؤلاء المشعوذين لم يفهموا الإسلام ولم يعقلوا قط أنه دعوة إصلاح لخير الناس،كما قصرت عقولهم عن إدراك سرِّ القوة الأصيلة التي هيأت لمحمد عليه الصلاة والسلام كل ذلك التوفيق العظيم، وهي أن دعوته مطلوبة لإصلاح الأخلاق والمعاملات ونظم الحكم والمعيشة في العالم كله، وليست مجرد نهزة تنتهز لظهور رئيس مطاع.أوحيلة كاهن تحقق المجد المرموق.فحق لهم أن يطمعوا في الفلاح لأنهم كهان لاتعوزهم وسائل السحر وحبائل الخديعة..فتطلعت رؤوس الفتنة من هنا وهناك والنبي عليه السلام بقيد الحياة، ولم تفاقم ولم تبلغ مداها من الانتشار في حياته عليه السلام.[3]

ولم يكن ظهور هؤلاء الأنبياء الكاذبين مفاجأة لبعض المسلمين، فقد تنبأ الرسول بذلك، فقالعليه الصلاة والسلام في حديث رواه أبوهريرة : " لاتقوم الساعة حتى يخرج ثلاثون دجالا، كلهم يدعي النبوة ".

ولاشك أ ن هؤلاء الأنبياء الكاذبين كانوا على درجة كبيرةمن الدهاء والذكاء والفطنة. فقد استطاعوا بنزعتهم القبلية وميلهم إلى الاستقلال بقبائلهم أن يسيطروا على بلادهم، ولا غرو فقد أثار إعجابهم نجاح النبي الرائع في العشر سنوات التي قضاها في المدينة، ومن ثم عمدوا إلى التشبه بالنبي ليصلوا إلى ما وصل إليه بالدعوة الدينية وبالوحي، وبوقوفهم على المقاييس العقلية عند العرب خاطبوهم على قدر عقولهم ووصلوا إلى قلوبهم ونفوسهم وأرضوا مشاعرهم، ووافقوا أمزجتهم مما جمع كثيرا من الأنصار حولهم.

---

(1) . علي حسين الخربوطلي : الإسلام والحركة المضادة .ص 4

(2) . الفتوح 14/1 عن الرفاعي : عصر الخلافة الراشدة .مرجع سابق .ص 62

(3) . العقاد : عبقرية الصديق .ص 106

فقد تنبأ الأسود العنسي في اليمن، كما تنبأ مسيلمة بن حبيب في بني حنيفة باليمامة، وتنبأ طليحة بن خويلد في بني أسد بنجد، ثم قلدهم في ذلك ذوالتاج لقيط بن مالك الأزدي، وسجاح بنت الحارث بن سويد في بني تغلب بالجزيرة. وقد كان من وسائل هؤلاء الأنبياء الكاذبين اللجوء إلى الشعوذة والدجل وما ظنه المخدوعين من أتباعهم معجزات.

يقول ابن الأثير: " كان الأسود العنسي مشعوذا يخدع الناس بألوان من السحرويزعم أن له شيطانا يلازمه ويطلعه على الغيب وأسرار الناس " .وكان مما جاء به وذكر أنه وحي :(يا ضفدع بنت ضفدع نقي ما تنقين، أعلاك في الماء وأسفلك في الطين، لا الشارب تمنعين، ولا الماء تكدرين ...)وقال أيضا :(و المبديات زرعا والحاصدات حصدا والذاريات قمحا والطاحنات طحناوالخابزات خبزاوالثاردات ثرداواللاقمات لقما إهالة وسمنا، لقد فضلتم على أهل الوبر، وما سبقكم أهل المدر..).(1)

أما مسيلمة الكذاب فقد تحدث عنه ابن قتيبة فقال: "وهو أول من أدخل البيضة في قارورة، وأول من وصل جناح المقصوص من الطير، فاتَّبعه على ذلك خلق "، وكان مسيلمة ينقع البيضة ليلة في الخل والشب حتى تلين ثم يدخلها في قارورة ذات عنق ضيق، ثم يصب عليها ماء تتجمد على حالتها الأولى، فيتوهم المخدوعون أنها معجزة.[2]

وإلى جانب هذهالحيلوالشعوذة، حاول هؤلاء الأنبياء الكاذبين التشبه بالرسول صلى الله عليه وسلم فقد علم مسيلمة أن الرسول قد بصق في بئرٍ فازدادت ماؤها غزارة، حتى إذا بصق مسيلمةفي بئر تضاءل ماؤها ثم بصق في بئر أخرى فازدادت ملوحة مياهها ،وسقي بمائها بعض النخيل فجفت. ودعا مسيلمة لرجل بالشفاء من مرض أصاب عينيه فأصابه العمى. [3]

ولم تكن هذه الحيل تنطلي على أهل الحجى وأولي النهى، فقد وفد الأحنف بن قيسالتميمي وعمه المتشمس على مسيلمة فسمعا مقالته، فلما خرجا من عنده سأل الأحنف عمه: كيف تراه ؟ قال أراه كذابا.[4]

---

(1) . الكامل 361/2

(2) . المعارف :ص 229

(3) . ابن كثير: البداية والنهاية 326/6

(4) أنظر:ابن قتيبة :المعارف .ص 241، والبيهقي :المحاسن والمساوئ.ص 33

وإن قصة نجاح مسيلمة الكذاب، وسيطرته على آلاف الأتباع تدعوا إلى التعجب والدهشة، فلم يكن مسيلمة في مظهره على جانب من جمال الخلقة أوالوسامة.بل وصفه ابن كثير[1] : " بأنه أصفر أخينس أسمر اللون وكأنه جمل أورق " . أي الجمل الذي يجمع بين البياض والسواد . كما لم يكن مسيلمة قبل ادعائه النبوة من المذكورين في قومه حتى أنه كان تابعا للوفد الذي قدم على الرسول عليه الصلاة والسلام في المدينة، فقد عهد قومه إليه بحراسة الأمتعة، ولم يشاركهم في الدخول على الرسول الكريم رغم تقدمه في السن.[2]

وكانت سجاح تسجع سجع الكهان، وتزعم أنه قرآن، " وسارت لقتال مسيلمة في اليمامة فلما علم بمسيرها إليه قال لأصحابه : ما الرأي ؟ قالوا : أن تسلم الأمر إليها فلا طاقة لنا بها وبمن معها، فقال مسيلمة : دعوني أنظر في أمري، ففكر وكان داهية، فأرسل إليها وقال :ينبغي أن نجتمع أنا وأنت في موضع، ونتدارس ما نزل من الوحي، فمن كان على الحق تبعه الآخر، فأجابته إلى ذلك، وأمر مسيلمة أن تضرب قبة من آدم ويستكثر فيها من العود .[أي الطيب القوي الرائحة الزكية]. وقال : إن المرأة إذا شمته ذكرت الباه .[أي القدرة على النكاح]. ثم اجتمع بها في القبة وخادعها وواقعها، فلما قام عنها قالت :إن مثلي لا يجريأمرها هكذا، ولكن إذا خرجت اعترفت لك بالحق واخطبني إلى قومي فإنهم يزوجونك.. ثم أقود بني تميم معك، فلما خرجت قالت :إنه قرأ علي ما نزل عليه من الوحي فوجدته حقا، وقد سلمت الأمر إليه، ثم خطبها فزوجوه، وجعل مهرها إعفاءهم من صلاة العصر قالوا :فبنو تميم بالرمل إلى الآن لا يصلون العصر ويقولون : هذا مهر كريمتنا.. ".[3]

ويبدي المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل تعجبه من قصة سجاح فيقول[4] :" هذه قصة سجاح بنت الحارث وهي . كما قدمت . عجب كل العجب وهل عجب كمغامرتها بالسير من الجزيرة للقاء أبي بكر وقتاله، ثم إسراعها إلى العدول عن عزمها حين تحدث مالك بن نويرة إليها، ثم انقلابها إلى اليمامة ولقائها مسيلمة وزواجها منه وعودها من عنده إلى أرضها، وبقائها بعد ذلك مع ذويها كأنها لم تخرج من بينهم ولم تتزوج من غيرهم.. !وأمر مسيلمة أعجب العجب، ولئن صحَّ أنه تزوجها ليكونن ذلك برهانا على دهائه في السياسة وعلمه بمداخل القلوب، فهوقد أراد أن يتخلص منها ليفرغ لقتال من حوله من القبائل ومن أوفدهم أبوبكر

(1) . البداية والنهاية 341/6

(2) . أنظر : ابن هشام في سيرته 244/4

(3) . ابن طباطبا: الفخري .ص 74،75، وانظر: ابن أعثم : الفتوح 25/1

(4) . الصديق أبو بكر .ص 140

لقتاله من المسلمين،ورآها لينة فاستهوى أنوثتها، فلما لانت له ودانت أعرض عنها وتخلص منها...والحق أن حديث هذه المرأة مع مالك بن نويرة ثم مع هذا الزميل من مدعي النبوة،يشهدبأنها لم تكن حسنة السجع في كهانتها فقد كانت لينة العريكة في أنوثتها.. فأما مسيلمة فكان رجلا قزما لا جمال فيه إلا حسن حديثه، وكان قليل الافتتان بالمرأة ومحاسنها، ولذلك كان مما شرعه لقومه أن من ولد له ولد لم يجز له أن يقرب امرأة إلا أن يموت ذلك الولد.فإذا جاز له أن يبتغي ولدا غيره فيقرب امرأته. أما من كان له ولد ذكر فالنساء عليه حرام.... ! ! " .

أما طليحة الأسدي فقد كان يزعم أن جبريل عليه السلام يأتيه بالوحي، وأشاع في الناس أن ضربة السيف لا تحيك فيه[1] لأنه أفلت من ضربة سيف وجهها إليه ضرار بن الأزور عندما أرسله الرسول صلى الله عليه وسلم لقتاله.[2]

إن كلا من طليحة الأسدي ومسيلمة وسجاح وغيرهم من مُدّعي النُّبوة لم ينكروا دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم [3]بل اعتبر كل وحد منهم أنه نبي مرسل لقومه وليست دعوته دعوة عالمية.

ويرجع الأستاذ العقاد . رحمه الله . ظاهرة ادعاء النبوة إلى الدسيسة المبثوثة من الدول الأجنبية، فالنبوة ظهرت من العرب أولياء فارس ولم تظهر من العرب أولياء الروم وهم الغساسنة ومن جاورهم من قبائل التخوم السورية، فهؤلاء يدينون بالمسيحية فلم يظهر بينهم مدَّع أومدَّعية للنبوة، ولكنهم ناوشوا المسلمين على التخوم مناوشة الحرب والوقيعة، أما التغلبيون على مقربة من فارس فلم يكن عليهم حرج من دولتهم التي تحميهم أن يحاربوا دين العرب الجديد بدين آخر، ولم يجدوا حرجا من عقيدتهم أن يسموا إلى المتنبئين والمتنبئات، لأن عقيدتهم كانت مزيجا من المجوسية والوثنية ومسحة من المسيحية لايرضاها أتباع كتاب، فلهذا ظهرت بينهم سجاح وسلكت في التبشير بدينها العجيب مسلكا لا يستريح العقل إلى تفسيره بغير تفسير واحد، وهوأنها كانت تعمل لغرض سياسي وبإغراء دولة أجنبية، ولا تعمل لغرض ديني ولا بدافع من عندها أوعند ذويها.[4]

---

(1) . لا تحيك : لاتؤثر

(2) . ابن الأثير : الكامل 2 /343

(3) . قال ابن هشام في سيرته (245/4) عن مسيلمة :" ...وهو مع ذلك يشهد لرسول الله بأنه نبي .. ".

(4) . عبقرية خالد .ص 77،82

2 . مانعو الزكاة

زعم فريق آخر من المرتدين أن الزكاة إتاوة قبلوا دفعها للنبي صلى الله عليه وسلم شخصيا، فإذا مات أصبحوا في حل من دفعها لمن قام بعده.وقالوا :" نقيم الصلاة ولا نؤتي الزكاة..لأننا كناندفعها لمن كانت صلاته سكنا لنا "، لقوله تعالى : { خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها، وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم، والله سميع عليم }. وفي هذا يقول مالك بن نويرة . عن مانعي الزكاة :

وقلت :خذوا أموالكم غير خائف ولا ناظر فيما يجيء به الغد
فإن قام با لأمر المُخَوِّف قائم منعنا وقلنا : الدين دين محمد

وهذا الفريق لم يعتبره الصحابة قد كفر بالإسلام، وعارض عمر أبابكر في حربه لهم محتجا بقول الرسول صلى الله عليه وسلم :" أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قالها عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله "، فقال أبوبكر :"والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة،فإن الزكاة حق المال، والله لومنعوني عقالا [1] كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأقاتلنهم على منعها "، فقال عمر :" فوالله ما هو إلا أن قد شرح الله صدر أبي بكر . رضي الله عنه . فعرفت أنه الحق " [2]، ثم قال :" والله لقد رجح إيمان أبي بكر بإيمان هذه الأمة جميعا في قتال أهل الردة ".وفي رواية أن عمر قال : "قلت يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم تألَّف الناس وارفق بهم، فقال لي :أجبَّار في الجاهلية وخوَّار في الإسلام، قد انقطع الوحي وتمَّ الدين أينقض وأنا حي ؟ ".

وهكذا اتخذ الخليفة الصديق قرارا وافق عليه الصحابة بإجماع، وهوأن مقاتلة مانعي الزكاة واجب، وهم كفار حلالوا الدم حتى يؤدوها.وهكذا عاد رجال الوفد الذين جاءوا إلى المدينة يعرضون على الخليفة الحل الوسط والمرُضي للمسلمين . وهواستعداد عشائرهم للبقاء داخل حضيرة الإسلام والالتزام بتكاليفه وأداء شعائره ماعدى الزكاة التي أصَرُّوا على أن يعفوا من أدائها . إلى بلادهم وهم يحملون الرفض القاطع من الخليفة لعرضهم الذي تقدموا به، وتبلغ زعماء عبس وذبيان وفزارة وأسد وباقي الخليط من مانعي الزكاة أن الخلافة ستحارب من يمنع الزكاة ولوعقالا كان يؤديه لرسول الله.[3]

(1) . العقال : الحبل الذي يعقل به البعير الذي كان يؤخذ في الصدقة ...
(2) . متفق عليه .راجع :ابن الأثير: جامع الأصول 552/4
(3) . محمد أحمد باشميل : حروب الردة .ص 25

وهذا يعني أن المدينة أصبحت في حالة حرب مع أولئك الأعراب الذين أصروا من جانبهم على منع الزكاة، وأعلنوا أنهم سيهاجمون المدينة نفسها لإنتهابها واحتلالها، وكانوا من ناحية النظرة العسكرية المجردة في مركز القوة، فقد كانوا عدة آلاف،بينما القادرين على حمل السلاح في المدينة لمحاربة هؤلاء المتمردين قليلين جدّا.حيث كانت قوات الإسلام الرئيسية بقيادة أسامة بن زيد لا تزال غائبة في الشام تقاتل الرومان.وكان أول من يعلم هذه الحقيقة الخطيرة هوالخليفة الصديق، ولكنه من منطلق إ يمانه القوي المتين الذي يعادل جيشا بأكمله رفض عروض مانعي الزكاة المتعسفة التي لوقبل بها الخليفة لكانت أول ثغرة تتفتح في الإسلام ستتبعها فيما بعد ثغرات وثغرات ،لأن الأعراب . كما وصفهم الله تعالى . أشدّ كفرا ونفاقا. ولن تنتهي مطالبهم إذا ما وجدوا من يستجيب لها.فكانتصرف الصديق تصرف المؤمن الحكيم الشديد الحزم والصرامة.[1]

وأدرك الصديق أن رفضه مطالب المرتدينمع ما عليه المدينة من قلة عدد الرجال المحاربينيعني أن المرتدين سيغتنمون الفرصة، وسيسارعون إلى الهجوم على المدينة لاحتلالها قبل أن يعود جيش أسامة من الشام. فأخذ بأسباب الحيطة واتخذ الوسائل الدفاعية المناسبة فوضع الرقباء والمدافعين على أبواب الطرق المؤدية إلى المدينة وأعلن الاستنفار العام بين المسلمين في المدينة، وكلف أربعة من كبار الصحابة أن يكونوا على منافذ المدينة وهم علي بن أبي طالب، والزبير بن العوامطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي الوقاصوعبد الرحمان بن عوف، وعبد الله بن مسعود.وطلب من أهل المدينة أن يكونوا في المسجد استعدادا لكل طارئ وقال لهم : « إن الأرض كافرة . أي بلاد العرب وقد رأى وفدهم منكم قلة، وإنكم لا تدرون ليلا يأتون أم نهارا، وأدناهم منكم على بريد[2]، وقد كان القوم يأملون أن نقبل منهم ونوادعهم، وقد أبينا عليهم، فاستعدوا وأعدوا » . [3] فقال له المسلمون : " ننشدك الله يا خليفة رسول الله أن تعرض نفسك، فإنك إن تصب لم يكن للناس نظام، ومقامك أشد على العدو فابعث رجلا، فإن أصيب فابعث آخر، فقال :لا والله لا أفعل ولأواسينكم بنفسي.. ".

وصدق حدس أبي بكر فلم تلبث جموع مانعي الزكاة إلا ثلاث ليال حتى زحفت على المدينة، فأنذر بهم العسس، فأبلغوا أبا بكر، فخرج بالناس على الإبل حتى دافعوا العدو،ثم هاجمهم بعد ذلك ليلا وهم غير

(1) . محمد أحمد باشميل : حروب الردة .ص 25

(2) . البريد : مرحلة من الطريق .

(3) . ابن كثير : البداية والنهاية 313/6، الطبري : تاريخ 255/2

متوقعين للهجوم، ولاحقهمفي عماية الصبح فأوقع بهم هزيمة شديدة في « ذي القصة »[1]دفعت القبائل حين عادت إلى مقرها أن تنتقم ممن فيها من المسلمين فتقتل من تقدر عليه منهم.وهرع المسلمون في كل قبيلة يؤدون الزكاة لأبي بكر ويرجون عنده النصر.

قال الطبري يصف حالة المرتدين النفسية بعد أن دحرهم الخليفة في ذي القصة :".... فوثب بنوذبيان، وعبس على من فيهم من المسلمين فقتلوهم كل قتلة، وفعل من وراءهم فعلهم، وعزَّ المسلمون بوقعة أبي بكر، وحلف ليقتلن في كل قبيلة بمن قتلوا من المسلمين وزيادة... " .[2]

عاد جيش أسامة، واشتد بعوده ساعد المسلمين، فأبقاهم أبوبكر بالمدينة ليريحوا ظهورهم[3] ثم خرج في الناس على تعبئة فباغت عبسا وذبيان وبني بكر فغلبهم وأجلاهم عن مواقعهم، وأصبحت المدينة بعد ذلك في أمن بما تحقق لها من نصر، وفي رخاءبما عاد به الجيش من غنائم، وما حمل إليها من الزكاة ،وآن لأبي بكر أن يرسم سياسة عامة لقتال المرتدين في كافة أنحاء الجزيرة العربية.

قتال المرتدين

لما أراح أسامة وجنده ظهورهم وَجَمُّوا وجاءتهم صدقات كثيرة تزيد على حاجاتهم عقد أبوبكر رضي الله عنه أحد عشر لواءً لقتال المرتدين في كل أنحاء الجزيرة العربية وهم :

اللواء الأول :ويقوده خالد بن الوليد[4]، وأرسله إلى طليحة بن خويلد الأسدي، فإذا فرغ منه سار إلى مالك بن نويرة اليربوعي التميمي بالبطاح.[5]

اللواء الثاني :ويقوده عكرمة بن أبي جهل[6]، وأرسله إلى مسيلمة الكذاب الحنفي في اليمامة.

---

(1) . ذي القصة : موضع بينه وبين المدينة أربعة وعشرون ميلا .

(2) . تاريخ الطبري 256/2

(3) . أي خيلهم وإبلهم

(4) . خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي : أبو سليمان . سيف الله . الصحابي الجليل، من أشراف قريش في الجاهلية، كان يلي أعنَّة الخيل، أسلم عام 7هـ، سُرَّ به رسول الله وولاه الخيل، اشتهر بحروبه ضد المرتدين، قاد الفتوح في العراق ثم الشام، توفي في المدينة عام 21هـ .وقيل بحمص،.

(5) . البطاح : منزل لبني يربوع، وقيل ماء في ديار بني أسد بن خزيمة، وتقع جنوب وادي الرقة في بغض الأودية المتجهة إليه من الجنوب .أنظر: (ياقوت : معجم البلدان 445/1)

(6) . عكرمة بت أبي جهل المخزومي : من صناديد قريش في الجاهلية والإسلام، أسلم بعد الفتح وحسن إسلامه، كان على رأس كردوس في اليرموك واستشهد يومذاك عام 13 هـ .

اللواء الثالث :ويقوده شرحبيل بن حسنة[1] وأرسله دعما إلى عكرمة بن أبي جهل في اليمامة.

اللواء الرابع :ويقوده المهاجر بن أبي أميةوبعثه لقتال أتباع الأسود العنسي في اليمن، فإذا فرغ سار إلى حضرموت.

اللواء الخامس : ويقوده عمرو بن العاص، وسيره إلى قبيلة قضاعة في الشمال.

اللواء السادس :ويقوده خالد بن سعيد بن العاص، ووجهه إلى مشارف الشام.

اللواء السابع :ويقوده حذيفة بن محصن، وأمره بالحركة إلى أهل دبا بعمان.

اللواء الثامن : ويقوده عرفجة بن هرثمة، وسيره إلى مهرة باليمن،وأمره أن يلتقي مع حذيفة.

اللواء التاسع :ويقوده طريفة بن حاجز، وجهه إلى بني سليم ومن معهم من هوازن.

اللواء العاشر : ويقوده سويد بن مقرن، وبعثه إلى تهامة باليمن.

اللواء الحادي عشر :ويقوده العلاء بن الحضرميوقد اتجه إلى بلاد البحرين. (2)

وبتتبع هده السلسلة من التعيينات والمناطق يتضح انه تم عمليا تطويق جزيرة العرب بالجيوش من جميع أطرافها، ومع قلة إعداد الجند فان الجيوب الإسلامية الباقية ساندتها حيثما حلت، ويكفي ان تتسامى القبائل بانتصارات أولية للمسلمين لتحدث الصدمة النفسية مفعولها في الآخرين الدين ليست لهم عقيدة تجابه عقيدة الإسلام ولا قوة منظمة كتنظيمه .وهدا وقد زود أبو بكر كل القادة المذكورين بعهد من نص واحد يتضمن حدوود مهمته وما على الأطراف الأخرى من التزامات، كما بعث بكتاب الى جماهير العرب مسلمين وغيرهم بذكرهم بمهمة القادة المذكورين،وقد وفق خالدفي إخضاع بني أسد أولا، وأهل اليمامةأخرا حيث كان عكرمة هو المكلف ببني حنيفة كما اخضع خالد سائر المرتدين ومانعي الزكاة من بنيتميم حيث قتل احد قادتهم من المترددين في إسلامهم وهو مالك بن نويرة بينما كلف عكرمة بالالتحاق بحديفة وهرثمة في سواحل عمان على ان يتولى هو التنسيق بينهما، وقبل دلك كله كان القضاء على حركة الأسودباليمن من عمل فيروز الديلمي قبيل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وتواصلت مطاردة فلولها حتى تمكن المهاجر من

(1) . شرحبيل بن حسنة الكندي : صحابي من القادة، أسلم بمكة وهاجر إلى الحبشة، وأوفده رسول الله إلى مصر، قاد جيشا لفتح الشام، عزله عمر وولي معاوية معاوية مكانه وتوفي بطاعون عمواس عام 18هـ .

2محمد أحمد باشميل : حروب الردة . ص 25

القضاء عليهم بين نجران وأقاصي اليمن ليتوجه نحو حضرموت لقتال كندة والتي توجه إليها عكرمة أيضا وتعاون الجيشان بقيادة المهاجر حتى رجعت قبائل اليمن كلها الى الإسلام .

أما العلاء الحضرمي فادى مهمته في إرجاع البحرين بساحل نجد الشرقي إلى حظيرة الإسلام بعد جهود مضنية وسط قبائل بكر وشيبان وعبدالقيس وغيرها وتولت سائر الجيوش تعقب مرتدي هوازن وسليم ومانعي الزكاة من غطفان وفزارة حتى قضى على تمردهم نهائيا وقام جميع القادة بما عهد إليهم من مهمة محاربة المرتدين واستخلاص الزكاة حتى أخضعت من جديد سائر أصقاع شبه الجزيرة العربية بنهاية العام الحادي عشر للهجرة اي بعد صراع دام أكثر من عشرة أشهر وبدلك تكون سياسة ابي بكر القائمة على الضرب السريع واستغلال الجيوب الموالية وتحقيق التكاتف بين الجيوش في منتهى الفعالية والحكمة خصوصا وان هناك أجهزة إدارية وسياسية كانت قائمة في الأقاليم أيام النبوة ولو أن أبا بكر استمع إلى رأي مستشاريه في التريث والتمهل لأتاح للأعداء فرصة الانقضاض الساحق على ما بقى من معاقل الإسلام. (1)

نتائج حروب الردة :

1.لأول مرة تتوطد الوحدة السياسية للجزيرة العربية كلها والتي كانت قد استكملت في العهد النبوي .

2-شكل النظام السياسي الذي أوجده الصحابة فور وفاة النبي صلى الله عليه وسلم أصبح بعيدحروب الردة مثبت الأركان .

3-ظهور كفاءات حربية وقدرات قيادية فائقة مهدت للنجاح الباهرلكل جبهات الفتوح القادمة .

4-تحرك القبائل العربية قليلا او كثيرا واختلاطها ببعضها وانقسامها واستقرار بعض الصحابة بينها مما يزيد في تفكك النظام القبلي السابق .

5-حروب الردة هي اللمسة الأخيرة في مسلسل القضاء على وثنية الجزيرة العربية التي توطد فيها سلطان الدين الجديد في النفوس بعد تلك الحروب ولا يزاحمه دين جاهلي بعدئذ. (2)

1عمر الحسن:موسوعة التاريخ الإسلامي عصر الخلافة الراشدة، ط1، بيروت، دار اليوسف، 2004، ص21.

2عمر الحسن:المرجع نفسه، ص22.

الفصل الثالث:

الفتوحات الإسلامية

أولا:الفتوحات في الجبهة الشرقية الفارسية (العراق وإيران)

حينما كانت حروب الردة تضع أوزارها بنهاية 11هـ استأذن زعيم بني شيبان وهو المثنى بن حارثة الخليفة أبا بكر في الإغارة على حدود الإمبراطورية الفارسية بالجنوب العراقي فأذن له بعد أن أمر جيش خالد بن الوليد (1) بالإشراف على العمليات، وفي نفس الوقت ينطلق عياض بن غنم من دومة الجندل بعد إخضاعها نحو الشمال العراقي لينافس خالدا في الوصول إلى عاصمة المناذرة (الحيرة). ولقد انتصر خالد في أولى معاركه النظامية مع حاميات الفرس في كاظمة (الكويت حاليا) والأبلة (البصرة حاليا) وأسر القائد هرمز، ولاحق فلولهم وراء النهر منتصرا في المذار،وحاولت الإمدادات الفارسية إيقاعه في كمين لكنه أوقعهم في كمينه بالولجة، وظل يصعد مع جانب الفرات الغربي لتتواصل هزائمهم على يده في أُلّيس وأمغيشيا... وتستسلم له الحيرة وما يتبعها من السواد منتصف 12هـ،ثم وقعت هزائم أخرى لإمدادات فارسية وحاميات محلية مختلطة في مدن الأنبار وعين التمر والفراض...وكان خالد قد رجع خلالها إلى عياض المتوقف في محاصرة دومة الجندل فأخضعها بقوة وعاد الجيشان إلى الحيرة حيث كان المثنى والقعقاع التميمي يكملان المهمة بنهاية العام،حيث انتقل خالد إلى الشام بأمر الخليفة لصعوبة الموقف هناك ضد الروم، ورغم انتصار المثنى في بابل ضد جيش شهربراز بن كسرى أردشير ورغم اضطراب العرش الساساني إلا أن تولي بنات كسرى للملك' جعل المثنى يستنجد بالخليفة الجديد عمر فأسعفه بجيش أبي عبيد الثقفي الذي انتصر في مواقع النمارق والسقاطيةوباقسياثا.. بين دجلة والفرات منتصف 13هـ، واعتمد الفرس في كل ذلك على إرسال الجيوش بكثرة دون تخطيط، وقابل المسلمون هذه الإستراتيجية بكثرة تحريك قواتهم القليلة وسرعة المبادرة، وهنا تدخل القائد رستم لصالح إحدى الملكات وتولى إمرة الجيوش إنقاذا للموقف، فزحف على السواد واستدرج أبا عبيد كي يعبر الجسر وهناك هزمه بفيلته التي استشهد قائد المسلمين تحت أقدامها واضطربت صفوفهم بقطع الجسر الذيسميت المعركة به، وقد تمكن المثنى بصعوبة إنقاذ الجيشومعاودة الهجوم على السواد خصوصا بعد انتصاره في (البويب) مستنجدا ثانية بعمر نهاية 13هـ فأرسل إليه الخليفة بعد اطمئنانه على الشام نسبيا جيشا عظيما بقيادة سعد بن أبي وقاس، وتوفي المثنى تحت وطأة جراحه، أما

1العقاد: عبقرية خالد، بيروت، منشورات المكتبة العصرية، ص 124.

الفرس فاستقر أمرهم على فتى من آل كسرى يدعى (يزدجرد) قد جمع كل جيوشه تحت قيادة رستم لإنهاء الموقف،(1) وفي المقابل بقي سعد بجيشه في القادسية شمال الحيرة لا يقتحم الفرات حتى يبادر إليه الفرس ذلك، وبعد شهور من الانتظار عبر رستم بأكثر من مائة ألف جندي ومعهم الفيلة نحو جيش المسلمين الذي لا يتجاوز الثلاثين ألفا، وكانت أربعة أيام من الصبر والقتال والثبات والشجاعة ووصول الجيوش الراجعة من الشام كافية لانتزاع النصر،وقتل رستم في منتصف 15هـ ومباشرة زحف سعد على العاصمة المدائن شرق دجلة الوسطى فافتتحها بصعوبة مطلع 16هـ وكان يزدجرد قد هرب مع حاشيته بما خف حمله وغلا ثمنه... ثم بعث سعد ابن أخيه هاشم بن عتبة ليحاصر فلول الجيش الفارسي بقيادة مهران في مدينة جلولاء حتى فتحها وواصل القعقاع مطاردة مهران حتى قتله في فتح حلوان، وفتحت الموصل وتكريت شمال الموصل وتكريت شمال العراق، أما في جنوبه فقد بنيت للعرب مدينتا البصرة والكوفة في البداية كمعسكرين تستقر بهما عائلات الجنود وتنطلق منهما الجيوش لتتبع القائد الهرمزان في الأهواز والسوس وتستر وجنديسابور... حتى استسلم وبعث أسيرا إلى عمر فأسلم عنده، أما كسرى يزدجرد فبقي في عاصمته الثانية (الري) وهي طهران يجمع ما تبقى من جيوشه في محاولة أخيرة انتهت بالفشل في مدينة نهاوند 20هـ حيث حاصره ثلاثون ألفا بقيادة النعمان بن مقرن، ورغم استشهاده هذا الأخير إلا أن الانتصار كان واضحا حتى سمي (**فتح الفتوح**) فقد انسابت الجيوش الإسلامية في أرجاء فارس وفتحت المدن وأبوابها... وفي عهد الخليفة عثمان بعث ولاة البصرة والكوفة جيوشهم إلى خرسان شرقا وأذربيجان شمالا لاستكمال الفتوح التي برز فيها القائد التميمي الأحنف بن قيس وقتل يزدجرد على يد أتباعه لتنتهي الإمبراطورية الساسانية إلى الأبد. (2)

ثانيا: الفتوحات في الجبهة الغربية البيزنطية (الشام ومصر)

حينما انطلق خالد جنوب العراق كان الخليفة يستدعي المجندبن وقبائل اليمن إلى العاصمة وينتظر بهم اللحظة المناسبة لبدء فتح الشام، ذلك أن جيشا من جيوش قمع الردة ظل مرابطا في (تيماء) لحراسة الحدود مع الروم يقوده خالد بن سعيد بن العاص الأموي فلما توغل هذا الأخير في الأردن وانهزم أمام الروم أمر أبو بكر القائد عمرو بن العاص بالسير في جيش مع الساحب حتى يدخل فلسطين وبموازاته تسير ثلاثة جيوش انطلاقا من (تبوك) يزيد بن أبي سفيان إلى دمشق وأبو عبيدة بن الجراح إلى شمالها في حمص

1الطبري: تاريخ الأمم والملوك،ط3،بيروت،دار الكتب العلمية،1991، مج 2، ص307 – 310.

2شكري فيصل: حركة الفتح الإسلامي في الفرن الأول الهجري، *بيروت*، دار العلم للملايين،1980، ص62-83. أنظر أيضا أحمد عادل كمال: الطريق إلى المدائن، ط6، بيروت، دار الفكر المعاصر،1990، ص315.

وشرحبيل بن حسنة إلى جنوبها في الأردن مع أواخر 12هـ فكانت الصدامات الأولى سهلة على المسلمين بعربة وداثن في صحراء فلسطين وبمرج الصفّر في صحراء الأردن لتدقّ تلك الجيوش أبواب أهم المدن كحمص وبصرى ودمشق... [1]

أما عمروبن العاص فإنه واجه بوسط فلسطين جيشا رومانيا ضخما اضطره للاستعانة بإخوانه فوقعت معركة كبرى بمنطقة (أجنادين) بين غزة والقدس وكان انتصارا مدويا شجع المسلمين على مواصلة التوغل بل ودفع المدن الأولى إلى فتح أبوابها طلبا للصلح، وفي المقابل دفع الانتصار هرقل إلى تهيئة أكبر جيش في إمبراطوريته لإنقاذ الشام بمعركة حاسمة، مما حدى بالخليفة أبي بكر قبيل وفاته إلى نقل خالد وجيشه من العراق إلى الشام في منتصف 13هـ، وحاول الجيش الروماني المنهزم بعد أجنادين لملمة صفوفه انتظارا لهرقل لكن بعض الجيوش المسلمة بادرتهم بالهجوم وانتصرت عليهم في معركتين متتاليتين بفحل وبيسان على ضفتي نهر الأردن... وخلال عام 14هـ تجمعت كل الجيوش الإسلامية بمرتفعات الجولان عند نهر اليرموك في أربعين ألفا انتظارا لساعة الحسم مع الجيش الإمبراطوري الضخم بقيادة هرقل في أكثر من مائتي ألف جندي انهزموا أمام ثبات المسلمين في منتصف 15هـ فقال هرقل متراجعا: "سلام عليك يا سورية سلام لالقاء بعده" وترك المدن الشامية لمصيرها تصوغ صلحها بحسب قدرتها على تحمل طول الحصار بقية 15هـ، وسنة 16هي التي انساحت فيها جيوش المسلمين طولا وعرضا بدءا مما وراء الفرات الأعلى واللاذقية وحلب وحماة وقنسرين وانطاكية إلى قيسارية وغزة وبيت المقدس التي كانت تسمى (إيلياء) والتي رفضت الاستسلام إلا للخليفة بنفسه واستلم عمر بن الخطابرضي الله عنه مفاتيحها... بل إنه أشرف في مؤتمر الجابية بالجولان مع قادته على تنظيم بلاد الشام كلها، وقد وقع بعد ذلك طاعون (عمواس) 18هـ فهلك ناس كثيرون منهم جنود وقادة وصحابة... وفي ذلك الوقت كانت جيوش عمرو بن العاص تريد مطاردة الروم الفارّين إلى مصر وقائدهم أرطبون، فتردد الخليفة ثم أذن له حيث تقدم وانتصر في شمال سيناء بالعريش نهاية 18هـ والفرما مطلع 19هـ[2]

ثم كانت معركة بلبيس قرب فرع النيل حاسمة إذ تراجع الروم إلى حصن (بابليون) وقد أصر أرطبون على الصمود للحصار بينما حاول المقوقس تليين الموقف بينه وبين ابن العاص خصوصا لما رأى أن هذا الأخير نصب خيام جنوده وبني فسطاطه (وهو ما سيكون بداية لبناء مدينة الفسفاط ثم القاهرة) وذلك حين جاءته إمدادات من الخليفة بقيادة الزبير والمقداد وعبادة بن الصامت... في اثني عشر ألفا وبعد تضييق

1العقاد: عبقرية خالد، بيروت، منشورات المكتبة العصرية، ص 124.

2الطبري: المصدر السابق، مج 2، ص307 – 310.

الخناق استسلم الحصن وفق معاهدة بفرض الجزية على المصريين وبترك الاختيار للحاميات الرومانية والتي انسحبت بدورها إلى مدينة الإسكندرية الحصينة 20هـ، وقد تكرر لهذه المدينة نفس (السيناريو) واستسلمت بمعاهدة مماثلة 21هـ ثم بعد أن ثّبت عمرو فتحه لمصر في مدن الصعيد الجنوبية وواحة الفيوم عمد إلى فتح برقة بالساحل الليبي وبعث عقبة بن نافع الفهري إلى دواخل صحراء ليبيا في زويلة وفزان وزدان...سنة 22هـ، بينما وصل ابن العاص إلى طرابلس التي انتظرت الإعانات الرومية عبر البحر دون جدوى فاستسلمت له بعد ذلك 23هـ لكن الخليفة عمر نهاه عن مواصلة الفتح. (1)

وفي بداية عهد عثمان حاول الأسطول البيزنطي استعادة مصر فتركهم ابن العاص يستولون على الإسكندرية وانقض عليهم أثناء تقدمهم فأسرعوا إلى الأسطول للفرار بلا رجعة مما اضطر ولاة الشام (كمعاوية) ومصر (كعبد الله بن أبي سرح) إلى بناء أسطول بحري إسلامي والابخار به في جزيرة قبرصقبالة الشام وفي معركة ذات الصواري قبالة الساحل المصري... هذا وقد واصل ابن أبيالسرح والي مصر التوغل في إفريقية (تونس) وهزم تجمع حامياتها بسبيطلة قرب قفصة وقتل قائدهم جرجير وغنم منهم وصالحهم واكتفى بذلك، أما في جنوب مصر فقد توغل في النوبة (شمال السودان) أبعد من مدينة دنقلة التي توقف عندها ابن العاص، ثم اكتفى ابن أبيالسرح من أهل النوبة بالصلح الذي صادق عليه الخليفة كل ذلك حوالي 30هـ.(2)

1العقاد: عبقرية خالد، بيروت، منشورات المكتبة العصرية، ص 124.

2الطبري: المصدر السابق، مج 2، ص307 – 310.

الفصل الرابع :

الفتنة في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه

أسباب الفتنة في عهد عثمان رضي الله عنه

لقد تعددت أسباب الفتنة الأولى لدى مؤرخي الإسلام، ونرجح حدوث الفتنة إلى أسباب نقسمها إلى ثلاثة أقسام :

1 . أسباب أخذها الناس على عثمان وطريقة حكمه

2 .أسباب فرضتها ظروف الدولة وطبيعة التحول الاقتصادي والاجتماعي في ذلك العصر

3 . دور السبئية في أحداث الفتنة

أولا : الأسباب التي أخذها الناس على عثمان وطريقة حكمه :

أثيرت حول الخليفة عثمان رضي الله عنه أمور عن سياسته واعتبرت بعض اجتهاداته مآخذ عليه، ونعرض هنا لأبرز هذه المآخذ وجواب الخليفة عليها وآراء وتوجيهات المتقدمين عنها قبل أن ننتقل إلى أحداث الفتنة ودور عبد الله بن سبأ فيها.(1)

1 ما نسب إلى عثمان . رضي الله عنه . من إيثار أقربائه بإسناد الولايات إليهم وعزل كبار الصحابة عنها، وتولية الأحداث منهم، ومنحهم الأموال، ورد الحكم بعد أن نفاه النبي صلى الله عليه وسلم، وإعطاء مروان صدقة فدك ومائة ألف درهم، وإعطاء ابن أبي سرح أخماس إفريقية.

أما قولهم : كان يعزل كبار الصحابة ويولي مكانهم من هوأدنى منهم من الأحداث مرتبة وفضلا من أقاربه مثل سعيد ابن العاص، وعبد الله بن عامر، وابن أبي السرح ومعاوية، فلذلك ما يبرره من أمور تسوغها السياسة الرشيدة وذلك ما تكفلت با لرد عليه سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه أبي بكر وعمر . رضي الله عنهما. وقد أجاب عثمان . صلى الله عليه وسلم على ذلك بقوله : " ولم أستعمل إلا مجتمعا، محتملا، مرضيا، وهؤلاء أهل عملهم فسلوهم عنه، وهؤلاء أهل بلده، ولقد ولّى من قبلي أحدث

(1) . أخذنا في هذا الموضوع بالترتيب الذي وضعه د.محمد أمخزون في كتابه (تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة من روايات الطبري والمحدثين).

منهم، وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أشد ما قيل لي في استعماله أسامة. أكذلك؟ قالوا: نعم يعيبون للناس ما لا يفسرون" .(1)

ويقول علي رضي الله عنه :"لم يول إلا رجلا سويا عدلا، وقد ولَّى رسول الله عتاب بن أسيد على مكة وهو ابن عشرين سنة وولى أسامة بن زيد بن حارثة وطعن الناس في إمارته فقال :إنه لخليق بالإمارة" .(2)

والواقع أن أبرز العمال الذين ولاهم عثمان رضي الله عنه من أقاربه قد أثبتوا الكفاية والمقدرة في شؤون ولاياتهم، وفتح الله على أيديهم الكثير من البلدان، وساروا في الرعية سيرة العدل والإحسان ومنهم من تقلَّد مهام الولاية قبل ذلك في خلافةأبي بكر وعمر . رضي الله عنهما . ومن هؤلاء: . معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه في الشام وقد ولاَّه عمر رضي الله عنه من قبله، وجمع له الشامات كلها، وقبل ذلك ولاَّه أبوبكر الصديق رضي الله عنه حينما استخلفه عن أخيه يزيد، بل قبل أن يكون معاوية من ولاة عثمان أوأبي بكر أوعمر كان أحد الذين استعملهم رسول الله صلى الله عليه وسلم واستعان بهم، فقد جعل معاوية كاتبا بين يديه كماثبت في صحيح مسلم.(3)

2 . عبد الله بن عامر بن كريزولاَّه عثمان رضي الله عنه على البصرة، وهوفاتح خراسان كلها، وأطراف فارس،وسجستان، وكرمان، حتى بلغ أعمال غزنة، وقتل في إمارته يزدجرد بن شهريار آخر ملوك الفرس.(4)

وهوأول من اتخذ الحياض بعرفات وأجرى إليها العين، وشق نهر البصرة، بعد هذا فهوالرجل الذي له من الحسنات والمحبة في قلوب الناس ما لاينكر كما يقول ابن تيميه.(5)

قال فيه الإمام الذهبي: "وكان من كبار أمراء العرب وشجعانهم، وأجوادهم، وكان فيه رفق وحلم " .(6)

3 . الوليد بن عقبة رضي الله عنه وقد ولاَّه الكوفةعمر رضي الله عنه على صدقات بني تغلب، وقبل أن يوليه عمر كان أحد الرجال الذين استخدمهم الخليفة الصديق رضي الله عنه فقد كان موضع السر في الرسائل الحربية التي دارت بين الخليفة وقائده خالد بن الوليد في وقعة المذار مع الفرس سنة 12هـ(7)، كما

---

(1) . الطبري : تاريخ 651/2

(2) . ابن كثير: البداية والنهاية 171/7

(3) . صحيح مسلم . بشرح النووي . 62/16

(4) . ابن حجر: الإصابة 353/2 ،الطبري : تاريخ 634/2

(5) . منهاج السنة 189/3

(6) . سير أعلام النبلاء 18/3

(7) . الطبري : تاريخ 311/2

وجهه أبوبكر رضي الله عنه مددًا لقائده عياض بن غنم بعد ذلك(1)، ويقول عثمان رضي الله عنه ما وليت الوليد لأنه أخي . (وهوأخوه لأمه أروى بنت كريز) . وإنما وليته لأنه ابن أم حكيم البيضاء عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوأمة أبيه ".(2)

وكان الوليد في ولايته أحب الناس في الناس وأرفقهم بهم، وقد أمضى خمس سنين وليس على داره باب.

أما قولهم شرب الخمر وهو وا لٍ على الكوفة من قبل عثمان فهومع ثبوته ليس مأخذا على عثمان، بل كان من مناقب عثمان رضي الله عنه أنه أقام عليه الحدَّ وعزله عن الكوفة حيث ذكر الإمام البخاري هذه الحادثة في " باب مناقب عثمان " (3). ثم إن تلك الحادثة لم تطرأ في عهد عثمان فحسب بل لها سابقة في عهد عمر بن الخطاب . رضي الله عنه حيث ذكر أن قدامة بن مظعون . له صحبة . وشرب الخمر وهوأمير على البحرين من قبل عمر فحدَّه وعزله. فليست الذنوب مسقطة للعدالة إذا وقعت منها التوبة.(4)

4 . عبد الله بن أبي سرح ولاَّه مصر بعد عمروبن العاص وهوممن ارتد عن الإسلام ثم جاء تائبا وقبل الرسول توبته بعد أن كان أهدر دمه، يقول ابن هشام فيه :"وقد حسن إسلامه بعد ذلكوولاه عمر بعض أعماله ثم ولاه عثمان ".(5)

وذكر ابن حجر عن ابن البرقي في تاريخه عن الليث ابن سعد قال :"كان ابن أبي سرح على الصعيد في زمن عمر، ثم ضمَّ إليه عثمان مصر كلها، وكان محمودا في ولايته، وغزا ثلاث غزوات :إفريقية وذات الصواري والأساود " .(6)

---

(1) . المصدر نفسه :324/2

(2) . ابن العربي : العواصم من القواصم .ص 85

(3) . البخاري : الجامع الصحيح . كتاب أصحاب النبي (ص) . 202/4

(4) . ابن العربي : العواصم من القواصم .ص 93

(5) . السيرة النبوية 38،39/4 ،وانظر : (أبو بكر المالكي :رياض النفوس 66/1)

(6) . ابن حجر : الإصابة 309/2

هؤلاء من أشهر ولاة عثمان . رضي الله عنه . وإذا كانت جريرة عثمانأنه ولَّى أقاربه فلم يكن أول من فعل ذلك، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤثر قريشا على الناس(1)، وقد تقلَّدأغلب من ولاهم عثمان مهام الولاية في عهد رسول الله وأبي بكر وعمر، وكانوا أهل كفاية وبصر با لإمارة والقدرة على إدارتها، فلا يعتد بكلامأهل الأهواء فيهم،لأنه لا يقوم على النصفة والاعتدال. وصدق الشاعر حين قال :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبديالمساويا

أما ما نسب إلى عثمان . رضي الله عنه . من إيثار قومه با لأعطيات فا لذي صح منه ما ذكره الطبري : «أن عثمان قال لعبد الله بن سعد . بعد أن سرحه إلى إفريقية . إن فتح الله عليك فلك مما أفاء الله عليك من المسلمين خمس الخمس من الغنيمة نفلا حتى إذا أعطاه ما وعده صاح به الناس، فقال لهم :أنا أمرت له بذلك، وهوإليكم الآن، فإن رضيتم وإلا رددته، قالوا فإنا نسخطه، فأمر ابن سرح برده ففعل ».(2)

وقد علل ابن تيميه ما أخذ على عثمان بشأن المال بتوجيهات ثلاثة :

أحدهما :أنه عليه (أي أنه من العاملين على المال) والعامل يستحق مع الغنى.

والثاني : أن ذوي القربى هم ذووقربى الإمام.

والثالث : أن قبيلة عثمان كانت كبيرة وليست كقبيلة أبي بكر وعمر، فكان يحتاج إلى إعطائهم وولايتهم أكثر من حاجة الخليفتين قبله، وهذا مما نقل عن عثمان الاحتجاج به.(3)

ومما ذكر من المآخذ على عثمان أنه ردَّ عمه الحكم ابن أبي العاص إلى مكة وكان الحكم قد نفاه رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى الطائف، ومن المعروف في أبواب الفقه أن النبي إذا كان قد عزَّز رجلا با لنفي لم يلزم أن يبقى منفيا دائما، بل غاية النفي المقدر في الشريعة لايعني التأبيد، ويبقى باب التوبةمفتوحا يرفع تلك العقوبة بلا خلاف بين أئمة العلم.

(1) . ابن كثير : البداية والنهاية 171/7

(2) . الطبري : تاريخ 597/2

(3) . منهاج السنة 237/3

ومنالمعلوم قطعا أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن ليأمر بنفي أحد دائما ثم يرده عثمان معصية لله ورسوله ولاينكر ذلك عليه الصحابة مع ما يحول دون ذلك من تقوى عثمان رضي الله عنه وطاعته لله ورسوله على الإقدام على مثل هذا الفعل.(1)

وفي هذا الصدد يقول ابن العربي: «وأما ردُّ الحكم فلم يصح . أي ما زعم البغاة على عثمان خالف بذلك ما يقتضيه الشرع . وقال علماؤنا في جوابه: قد كان أذن له فيه رسول اللهوقال . أي عثمان . لأبي بكر وعمر: فقالا له: إن كان معك شهيد رددناه، فلما ولي قضى بعلمه في ردّه وما كان عثمان ليصل مهجور رسول الله صلى الله عليه وسلم ولوكان أباه ولا لينتقض حكمه».(2)

2 ما نسب إليه من أشياء استحدثها وخالف بها من سبقه في زعمهم، كجمعه للقرآن في مصحف واحد، واتخاذه الحمى، وإتمامه الصلاة بمنى، وإتمامه سُنة القصرفي الصلوات الخمس، وزيادة الأذان الثاني يوم الجمعة، وترك القصاص من عبيد الله بن عمر قاتل الهرمزان.

أما جمعه للقرآن في مصحف واحد فذلك حسنة من حسناته، ومنقبة من أعظم مناقبه. يقول ابن العربي . رحمه الله .:"وأما جمعه القرآن فتلك حسنته العظمى، وخصلته الكبرى، وإن كان وجدها كاملة، لكنه أظهرها وردَّ الناس إليها، وحسم مادة الخلاف فيها، وكان نفوذ وعد الله بحفظ القرآن على يديه... روى الأئمة بأجمعهم أن زيد بن ثابت قال :أرسل إلي أبو بكر رضي الله عنه بعد مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده، فقال أبوبكر: إن عمرا أتانا فقال: إن القتل قد استحرَّ يوم اليمامة بقُرَّاء القرآن، وإنما أخشى أن يستحرَّ القتل با لقُرَّاء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تجمع القرآن قلت لعمر: كيف نفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال عمر: هذا والله خير، فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، رأيت في ذلك الذي رأى عمر" .(3)

وقد تمَّ جمع القرآن في زمن أبي بكر وبقيت الصحف عنده حتى توفاه الله، ثم عند ابنته حفصة رضي الله عنه ،ولما قدم حذيفة ابن اليمان على عثمان من مناطق القتال في العراق والشام قال لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة كي ترسل له الصحف حيث تم نسخها بواسطة عدد من الصحابة :زيد بن ثابت، وعبد الله ابن الزبير، وسعيد

(1) . محمد أمخزون : تحقيق مواقف الصحابة...مرجع سابق 433/1

(2) . العواصم من القواصم .ص 77

(3) . العواصم من القواصم، ص 66،68

ابن العاص، وعبد الرحمن ابن الحارث،فنسخوها في نسخ أرسل عثمان إلى كل قطر بنسخة منها، ورد الصحف إلى حفصة، وأمر بإتلاف ماعدا ذلك من الكتابات المتفرقة عند الأشخاص.(1)

وأما كونه حمى الحمى (أي حجز أرضا ومنع الناس من الرعي فيها) فقد علَّلَ ذلك بقوله :وإني حميت حمى قبلي..ثم لم يمنعوا. مستخدميه من رعية أحدا، واقتصروا لصدقات المسلمين يحمونها لئلا يكون بين من يليها وبين أحد تنازع..ومالي من بعير غير راحلتين، ومالي ثاغية ولاراغية، وإني قد وليت، وإني أكثر العرب بعيرا وشاءا فما لي اليوم شاة ولا بعير غير بعيرين لحجي، أكذلك ؟قالوا :اللهم نعم .(2)

يقول علي رضي الله عنه : " أما الحمى فإنما حماه لإبل الصدقة لتسن، ولم يحمه لإبله ولا لغنمه، وقد حماه عمر من قبله " .(3)ويقول ابن العربي : " وأما الحمى فكان قديما فيقال إن عثمان زاد فيه لما زادت الرعية، وإذا جاز أصله للحاجة إليه جازت الزيادة لزيادة الحاجة ".(4)

وأما إتمامه للصلاة بمنى فهوأمر ثابت :فقد أخرج البخاري من طريق ابن عمر رضي الله عنه قال :" صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم بمنى ركعت ين وأبي بكر وعمر،ومع عثمان صدرا من إمارته ثم أتمَّها ".(5)

وأتى عبد الرحمن ابن عوف إلى عثمان يستفسره عن فعله فقال عثمان : "إني أخبرت أن بعض حاج اليمن وجفاة الناس قالوا :الصلاة للمقيم ركعتان، واحتجوا بصلاتي، وقد اتخذت بمكة أهلا وليبالطائف مال".

ويذكر ابن العربي : أن الناس افتتنوا با لقصر، وفعلوا ذلك في منازلهم فترك عثمان رضي الله عنه القصر. مجتهدا . خشية أن تؤدي السنة إلى إسقاط الفريضة.(6)

---

(1) . أحمد راتب عرموش : من مقدمة تحقيق كتاب الفتنة ووقعة الجمل .ص10

(2) . الطبري : تاريخ 651/2

(3) . ابن كثير: البداية والنهاية 171/7

(4) . العواصم من القواصم .ص 72

(5) . الجامع الصحيح :(كتاب تقصير الصلاة)

(6) . العواصم من القواصم .ص 78

وعلى كل حال فهي مسألة اجتهادية، وأكثر جمهور الفقهاء في أمصارالإسلام على أن القصر في السفر جائز لاواجب،وهورخصة، والإتمام عزيمة، والله تعالى يحب أن تؤتى رخصة كما يحب أن تؤتى عزائمه.فإذا كان عثمان رضي الله عنه لم يأخذ برخصة قصر الصلاة فقد أخذ بالعزيمة.(1)

. أما قولهم أنه أراد الأذان الثاني يوم الجمعة وهوبدعة، فيجاب على ذلك بأن سنة الخلفاء الراشدين من سنة النبي صلى الله عليه وسلم .وروى الإمام البخاري من طريق السائب ابن يزيد أن عثمان رضي الله عنه زاد الآذان الثاني في خلافته لما كثر الناس بالمدينة.(2)

فعلم بذلك أن المصلحة اقتضت زيادة الآذان الثاني ليعُمَّ الإخبار نظرا لاتساع المدينة وكثرة من فيها..وإلا لوكان الأمر خلاف السنة لأنكر عليه كبار الصحابة.وهم موجودون بالمدينة، كما أن عليا رضي الله عنه لم يأمر بإبطال هذا الآذان في خلافته.

أما زعمهم بأن عثمان ترك القصاص من عبيد الله ابن عمر قاتل الهرمزان وجفينة، فقد أخذ فيه عثمان برأي الأغلبية من الصحابة، ولم يذكر من خالف فيه سوى علي رضي الله عنه فقد رأى عثمان أن تسكين الفتنة وتهدئة النفوس أرجح مصلحة، فتعهد بإرضاء أهل الهرمزان، وقال:"أنا وليهم وقد جعلتها ديَّة من مالي"، فاحتملها من ماله رضي الله عنه .

ويعقب ابن تيمية على هذه الحادثة بقوله:"ومن العجب أن دم الهرمزان المتهم بالنفاق والمحاربة لله ورسوله والسعي في الأرض بالفساد تقام فيه القيامة، ودم عثمان يجعل لا حرمة له، وهو إمام المسلمين المشهود له بالجنة، الذي هو وإخوانه الصحابة أفضل الخلق بعد النبيين ".(3)

يقول صادق عرجون:"وإذاكان المنحرفون على عثمان قد رضوا من أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه ألا يحكم في قتلة عثمان رضي الله عنه .وهومن بحكم قبل التثبت والتحقيق أفلا يرضون من عثمان ببعض هذا في عبيد الله ابن عمر قاتل الهرمزان وجفينة وهماماهما وقد ثبت عند عبيد الله أنهما اشتركا في تدبير قتل أبيه هذا تحكم فوق طاقة العقل إدراك سره، ومهما يكن من شيء فإن موقف عثمان في هذا الحادث الذي فاجأه أول عهده بالخلافة كان أسلم موقف وأحكمه في شرعة الحق والإنصاف ومنهج السياسة وحسن التدبير ".(4)

---

(1) . محمد أمخزون : تحقيق مواقف الصحابة ....مرجع سابق .450/1

(2) الجامع الصحيح : (كتاب الجمعة)

(3) . منهاج السنة 202/3

(4) . عثمان بن عفان .ص 157،158

3 . ما نسب إليه في معاملة المعترضين عليه من الصحابة كأبي ذر الغفاري، وعمار ابن ياسر، وعبد الله ابن مسعود رضي الله عنهم . يقول ابن العربي : " أما نفيه أبا ذر إلى الربذة فلم يفعل، كان أبوذر زاهدا، وكان يُقرّع عمال عثمان،ويتلوا عليهم قوله تعالى : { والذين يكنزون الذهب والفضةولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم}.(التوبة34).ويراهم يتسعون في المراكب والملابس حين وجدوا،فينكر ذلك عليهم،ويريد تفريق جميع ذلك من بين أيديهم، وهوغير لازم. قال ابن عمر وغيره من الصحابة إنّ ما أديت زكاته فليس يكنز، فوقع بين أبي ذر ومعاوية كلام بالشام فخرج إلى المدينة فاجتمع إليه الناس...فقال عثمان :" لواعتزلت "معناه: إنك على مذهب لا يصلح لمخالطة الناس.فإن للخلطة شروطا وللعزلة مثلها.ومن كان على طريقة أبي ذر فحاله يقتضي أن ينفرد بنفسه، أويخالط ويسلم لكل أحد حاله مما ليس بحرام في الشر يعة، فخرج إلى الربذة زاهدا فاضلا،وترك جلة الفضلاء، وكلٌ على خير وبركة وفضل وحال أبي ذر أفضل ولا تمكن لجميع الخلق، فلوكانوا عليها لهلكوا، فسبحان مرتب المنازل ".(1)

وقد جاء في الطبري :" أن أبا ذر استأذن من عثمان في الخروج إلى الربذة لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصاه إذا بلغ البناء سلعا(2) أن يخرج من المدينة فأجابه عثمان، وأقطعه صرمة(3) من الإبل، وأعطاه مملوكين وأرسل إليه ألا ينقطع عن المدينة فيعود أعرابيا ففعل ".(4)

أما ضربه عمار بن ياسر حتى فتق أمعاءه، وكذلك ضرب ابن مسعود حتى كسر أضلاعه، ومنعه العطاء.فيعلق عليها ابن العربي بقوله : " وأما ضربه لابن مسعود ومنعه عطاءه فزور، وضربه لعمار إفك مثله ولوفتق أمعاءه ما عاش أبدا، وقد اعتذر عن ذلك العلماء بوجوه لا ينبغي أن يشتغل بها لأنها مبنية على باطل، ولا يبنى حق على باطل، ولا نذهب الزمان في مماشاةالجهال،فإن ذلك لا آخر له " .(5)

أما ابن الأثير فيقول : " ..ولو صح [أي هذا الخبر] . لكان ينبغي أن يعتذر عن عثمان فإن للإمام أن يؤدب رعيته، وغير ذلك من الأعذار لاأن يجعل ذلك سببا للطعن عليه ".(6)

---

(1) . العواصم من القواصم .ص 73

(2) . سلعا : موضع بقرب المدينة .أنظر : (معجم البلدان 236/3)

(3) . صِرْمة: من الإبل ما بين العشرين إلى الثلاثين، أو الخمسين والأربعين .أنظر : (القاموس المحيط 139/4)

(4) . الطبري : تاريخ 615/2

(5) . العواصم من القواصم .ص63،66

(6) . الكامل 114/3

4 . ما اعترض عليه في أحواله الشخصية :مثل تغيبه يوم بدر وفراره في أحد وعدم شهوده بيعة الرضوان وقد ردَّ على هذه الاعتراضات عبد الله بن عمر. رضي الله عنهما في نصٍّ له صحيح رواه الإمام البخاري عن طريق عثمان بن موهب قال: جاء رجل من أهل مصر حجّ البيت فرأى قوما جلوسا فقال: من هؤلاء القوم ؟ قال :هؤلاءقريش.قال :فمن الشيخ فيهم ؟ قالوا: عبد الله بن عمر !قال: يا ابن عمر ! إني سائلك عن شيء فحدثني عنه.هل تعلم أن عثمان فرّ يوم أحد ؟ قال نعم.فقال: هل تعلم أنه تغيب عن بدر ولم يشهد ؟ قال نعم، قال: هل تعلم أنّه تغيب عن بيعة الرضوان ؟ قال نعم، قال الله أكبر قال ابن عمر :تعال أبين لك، أما فراره يوم أحد فأشهد أن الله عفا عنه وغفر وأما تغيبه عن بدر فإنه كان تحته بنت رسول الله وكانت مريضة، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم :"إنّ لك أجر رجل ممن شهد بدرا وسهمه "،وأما تغيبه عن بيعة ا لرضوان فلوكان أحد أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه: فبعثه رسول الله وكانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان إلى مكة.فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده اليمنى: " هذه يد عثمان"فضرب بها على يده.فقال: "هذه لعثمان " فقال له بن عمر :اذهب بها الآن معك ".(1)

هذه المآخذ كلها يمكن أن نقول إن عثمان كان سببا فيها.أوأن الناس أخذوها عليه، بغض النظر عن وجهة نظر المؤيدين لعثمان أوالمعارضين له.لكن تلك الأسباب مجتمعة إنما تشكل جزء بسيطا من مجموع الأسباب ولم تكن لتؤدي إلى الفتنة لولا الأسباب الأخرى التي اجتمعت فأدت إلى ما أدت إليه .

ثانيا: الأسباب التي فرضتها ظروف الدولة وطبيعة التحول الاقتصادي والاجتماعي فيذلك العصر

توفي رسول صلى الله عليه وسلم ولم يتعد الإسلام جزيرة العرب.وكان قد بدأ بدعوة الأمم المجاورة ثم تتابعت الفتوح بعد ذلك ففتح الطرق وأنشأ العرب مدينتي البصرة والكوفة.وفتحت فارس بلد الحضارة والترف والنعيم، وفتح الشام وكان قديما مهد الأمم المختلفة والمدنيات المتعاقبة على أرضه وقد ورث كثيرا من حضارة الأمم الغابرة.

ولا شك أن الفتح الإسلامي كان سبيلا إلى اختلاط الفاتحين بأهل تلك البلاد حين تستقر الجيوش وتأخذ حظها من الراحة في المعسكرات أوالمدن إلا أنّه في زمن الخليفة عمر رضي الله عنه منع الفاتحون من التوسع في بلاد العجم وخاصة قبيلة قريش التي رأى ابن الخطاب أين أعلامهاسوف يثيرون وتؤثرهم الناس لكونهم قبيلة النبي ومنهم أهل بيت فقال قولته المشهورة :" ألا إنّ قريش يريدون أن يتخذوا دين الله معونات

(1) . أخرجه البخاري والترميذي .أنظر:ابن الأثير: جامع الأصول ...634/8

دون عباده.ألا فأما وابن الخطاب حي فلا، إني قائم دون شعب الحرة آخذ بحلاقيم قريش وحجزهاأن يتهافتوا في النار" .(1)

وقد كان يأتيه الرجل من ا لمهاجرين وهوممن حبس في المدينة فيستأذنه في الخروج من المدينة إلى البلاد المفتوحة فيجيبه عمر :" لقد كان لك من غزوك مع رسول الله ص ما يبلغك، خير لك من الغزواليوم ألا ترى الدنيا ولا تراك " .(2)

وتدفق المال في عهد عمر رضي الله عنه بصورة لم تكن في حسبان المسلمين وجاء أبوهريرة من البحرين بثمانمائة ألف درهم فلم يصدق عمر وقال له إنما قدمت بثمانين ألف درهم، واعتبره جاهلا بالحساب فلما تبين له أنه الحققام في صلاة الفجر فقال للمسلمين :"إنه قد جاء الناس الليلة ما لم يأتهم مذ كان الإسلام، وقد رأيت رأياً، فأشيروا علي أن أكيل للناس بالمكيال " .

وكان عمر يدعو الله أن يقي أمته شر هذا المال ويقول :" اللهم إنك ذكرت هذا المال فقلت :{زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة...}(آل عمران14) وقلت :{لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم}(الحديد23) ا للهم إنا لا نستطيع أن نفرح بما زينت لنا، اللهم إني أسألك أن تضعه في حقه، وأعوذ بك من شرّه".(3)

وقد حصل المسلمون على أموال طائلة من واردات بيت المال من الغنائم والأسلاب، فضلا عما يخص الغازين والمجاهدين ففي فتح "تستر "مثلا: ينال الفارس ثلاثة آلاف والراجل ألف درهم(4) وفي المدائن يتحصل المسلمون على فيء عظيم ويشرع سعد فيقسمه، ويأمر سلمان الفارسي بتقسيم الأربعة الأخماس الباقية فينال الفارس اثني عشر ألفا.(5)

ووقف عمر موقفا صلبا حازما اتجاه هذه الأموال فحمل نفسه على الزهد والتقشف وألزم أهل بيته على نفس الطريق وقال لهم :" إنّ الناس ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم.وأقسم بالله لا أجد أحدا فعله إلا أضعفت له العقوبة ،وحزم على عماله وولاته أن يتخذوا شيئا من مظاهر العظمة والملك ،واشترط على

(1) . الطبري :تاريخ 679/2

(2) .الطبري : تاريخ 679/2

(3) . ابن الجوزي :مناقب أ مير المؤمنين .ص 106،نقلا عن:الرفاعي :عصر الخلافة الراشدة .مرجع سابق .ص 164

(4) . ابن كثير: البداية والنهاية 87/7

(5) .ابن كثير: البداية والنهاية 67/7

كل والٍ من ولاته ألا يركب برذونا، ولا يأكل نقيا،ولا يلبس رقيقا، ولا يغلق بابه دون ذوي الحاجات، فإن فعل فقد حلت عليه العقوبة ".(1)

ولكن تيار الحياة الجديد كانأقوى من قرارات عمر فقد ضاق الناس بتلك القيود واشرأبت نفوسهم إلى زخارف الدنيا ومباهجها..ورأوا أن تلك الخيرات هي من نعم الله عليهم جزاء جهادهم وصبرهم.وبذلهم المهج والأرواح في سبيل تبليغ دعوة الإسلامفقد رغب الناس س في الانطلاق والانسياح في الأرض المفتوحة.وعندما تولى عثمان الخلافةسمح للصاحبة أن ينطلقوا إلى الأقاليم المختلفة للإقامة بها دون أجل محدود ودون أن يحصلوا على إذن من الخلافة قبل الخروج كماكان يحدث أيام عمرحيث حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج في البلدان إلا بإذن وأجل، " فلما ولي عثمان لم يأخذهم با لذي كان يأخذهم به عمر، فانساحوا في البلاد، فلما رأوها ورأوا الدنيا، ورآهم الناس، انقطع إليهم من لم يكن له طول ولامزية في الإسلام ".(2)

وقد أدَّى هذا النظام من جانب عثمان إلى تملك كبار الصحابة الضياع والعقارات في الأقاليم التي انطلقوا إليها. يقول المسعودي : "وفي أيام عثماناقتنى من الصحابة الدور والضياع منهم الزبير ابن العوام، بنى داره با لبصرة، وابتنى دورا بمصر والكوفة والإسكندرية وما علم من دوره وضياعه فمعلوم غير مجهول إلى هذه الغاية، وبلغ ثمن ملك الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار، وخلَّف الزبير ألف فرس، وألف عبد وأمة وخططا كثيرة، وكذلك طلحة ابن عبيد الله التميمي ابتنى داره با لكوفة في الكناسة المشهورة في هذا الوقت بدار الطلحيين، وكانت غلته من العراق كل يوم ألف دينار، وقيل أكثر من ذلك..وشيد داره با لمدينة، وبناها بالجص والآجر والصاج، وكذلك عبد الرحمن ابن عوف الزهري ابتنى داره ووسعها، وكان على مربطه مائة فرس، وله ألف بعير، وعشرة آلاف شاة من الغنم، وبلغ بعد وفاته الربع من ماله أربعة وثمانين ألف دينار، وقد ذكر سعيد ابن المسيب أن زيد ابن ثابت حين مات خلَّف من الأموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار وابتنى المقداد داره با لمدينة في الموضع المعروف با لجرف على أميال من المدينة، وجعل أعلاها شرفات، كما جعلها مجصصة الظاهر والباطن،وهذا الباب يتسع ذكره ويكثر وصفهفيما تُمُلِكَ من الأموال، ولم يكن مثل ذلك في عصر عمر ابن الخطاب، بل كانت جادة واضحة، وطريقة بيِّنَة " .(3)

(1) . السيوطي : تاريخ الخلفاء .ص 128

(2) . الطبري :تاريخ 679/2

(3) . مروج الذهب 332،334/2

وقد اهتم الناس بشراء الطريف والنادر والتحف، وكثر المال في زمن عثمان حتى بيعت جارية بوزنها، وفرس بمائة ألف درهم، ونخلة بألف درهم ...وظهرت ألوان من الترف واللهو مثل المعازف وآلات الموسيقى فشكا أهل المدينة ذلك إلى عثمان فأمر بتكسيرها وإغلاق المحال ا لتي تبيعها.(1)

ويتحدث الحسن البصري وهو شاهد عياد عن حالة المجتمع ووفور الخيرات، وإدرار الأموال، وما آل إليه أمر الناس من البطر وعدم الشكر .فيقول : » أدركت عثمان على ما نقموا عليه، قلما يأتي على الناس يوم إلا وهم يقتسمون فيه خيرا .يقال لهم :يامعشر المسلمين أغدوا على أعطياتكم فيأخذونها وافرة، ثم يقال لهم :أغدوا على السمن والعسل، الأعطيات جارية، والأرزاق دارّة، والعدومتقى،وذات البين حسن،والخير كثير...والأخرى كان السيف مغمدا عن أهل الإسلام فسلوه على أنفسهمفو الله ما زال مسلولا إلى يوم الناس هذا، وأيّم الله إني لأراه سيفا مسلولا إلى يوم القيامة" .(2)

والحقيقة أنه في مثل هذه الظروف يركن المجتمع إلى الدعة والفراغ والحياة المترفة..فلا يسعهم إلا تتبع سقطات الحاكم وإثارة المجتمع عليه، وتحريك الفتنة داخله .ويعلق الدكتور محمد فتحي عثمان على أحوال المجتمع وتطوره زمن عثمان رضي الله عنه فيقول : "..إن المجتمع العربي المسلم . زمن عثمان . كان يتطور ..كان ينمو..والنمو تصاحبه آلام لأن النسيج الذي كان يوائم الجسم الصغير لم يعد يلائم اليافع الكبير !إن الأم تتلوى حين تحمل ابنها وحين تضعه..وإن الطفل يتلوى حين تظهر أسنانه الصلبة في ثنايا لثته الرقيقة الغضَّة، وهو حين يشب يصاحب هذا وذاك تغيرات عضوية وانفعالات نفسية .

والمجتمع العربي المسلم زمن عثماد كان ينمو ..كان يتحول من مجتمع بسيط ساذج إلى مجتمع مركب ..من مجتمع عربي إلى مجتمع عالمي، يختلط فيه عرب وفرس وروم ومصريون، وزاد بعد ذلكفضم الترك والهنود .والدولة كانت تطور من أسلوب القبيلة في الإدارة والحكم إلى أسلوب الدولة الضخمة الواسعة، التي تحتاج إلى " كومنولث "أو "نظام فيدرالي " ،أو " كونفدرالي".

ولم تكن هناك دراسات دستورية وتجارب دولية تعين أسلافنا مثل الذي عندنا اليوم !والذين اعتزلوا ...اعتزلوا لأن التطور الوثاب قد شدهم ،فلم تسعفهم خبراتهم كي يتبينوا أسبابه ويصفوا علاجه، فلجأوا إلى هذه الخطة السلبية ليستنقذوا أنفسهم من دوامة الأحداث، وحسبهم أن يلقوا الله بقلب سليم . !

(1) . الرفاعي :عصر الخلافة الراشدة .مرجع سابق .ص 167

(2) . ابن كثير: البداية والنهاية 214/7

وعثمان المظلوم رضي الله عنه يُحمله الناس وحده نتائج هذا كله، كان عليه وحده أن يواجه مشكلات المجتمع المركب والدولة الموسَّعة بأيَّة خبرات؟ بخبرات شخصية عادية، مستمدة من ظروف تحدد لصاحبها مصادر الثقافة، ومصادر الخبرة . !

إن عمر الضخم العملاق الذي كان يسلم الجميع بضخامته وقوة شخصيته مات مقتولا ..وكان قتله أكبر نذير للتطور الحادث في المجتمع المتغير . ! ".(1)

وبحسبنا أن يكون من آثار تغير حال المجتمع الإسلامي في عمومه استشهاد عمر رضي الله عنه ، واضطراب أقوال المؤرخين في تفسير ذلك الحادث الخطير، وهل كان أمرا مبيتا تمر على القيام به جماعة من خصوم الإسلامنفسوا على المسلمين حياة عمر وشخصيته الفذة ؟ أو كان عملا فرديا دفع إليه الطيش والحقد الدفين ؟وماكان لذلك من نتائج خطيرة واجهت الحكومة الجديدة في شخص عثمان بن عفان وخلافته .

ذلك التراث الضخم بما وصفناه، وتلك الأقطار المترامية الأطراف ا لتي افتتحها المسلمون، وأولئك الأعراب الجفاة الذين انساحوا في الأرض مع جيوش المسلمين فاتحين غانمين، حتى ملئت أيديهم بالدنيا، وأخذت أبصارهم ببريقها، هؤلاء الأرقاء عبدان وموالي وأعاحممن الأجناس المتكاثرة الذين امتزجوا بالعرب فخدموهم وولدوا لهم، فأحسنوا وأساءوا، وهذه الخلافات الحزبية والأحزاب السياسية ،ثم هؤلاء الأحداث الذين تقدموا في بعضالمواطن إلى قيادة الناس وولاية أمرهم يسوسونهم وليس لهم في الإسلام سابقة ! كل أولئك كوَّن عناصر المجتمع الإسلامي الذي عهد مجلس الشورى بالخلافة عليه إلى عثمان بن عفان بعد عمر بن الخطاب .فقام بالأمر واجتهد وأحسن وبرَّ وعطف، ولكن تغير أحوال المجتمع أصدأ مرآة الحياة في نظر بعض الناس، فعظموا صغائر الأمور، وأساءوا فهم الحقائق، وخلعوا على كثير من الحوادث والوقائع غير أوصافها، وانقاد بعض الأغرار من ذوي المطامع إلى أغراضهم فمشوا إلى الفتنة، ومشت إليهم الفتنة ..(2)

ثالثا: دور السبئية في أحداث الفتنة

تتحدث كتب التاريخ في روايات مختلفة عن نشاط سري تقوم به بعض الجماعات ا لتي أظهرت الإسلام وأخفت معتقداتها القديمة، وراحت بدافع من الغيرة والحقد على دولة الإسلام الناشئة تبث الفتنة

(1) . المدخل إلى التاريخ الإسلامي .ص 382،383

(2) . صادق عرجون .عثمان بن عفان .مرجع سابق ..ص 75،76

في صفوف المجتمع المسلم، وتردد الشائعات ضد الخليفة.وقد عمدت إلى العمل السري لأنها فشلت في مجابهة المسلمين في العلن وانهزمت في مواجهةجيوش المسلمين في ساحات القتال .

وقد تحدثت المصادر عن دور السبئية في إشعال فتيل الحرب والفرقة بين المسلمين، وعلى رأسهاعبد الله بن سبأ وهو يهودي من صنعاء أظهر إسلامه في زمن عثمان بن عفان وكان يكنى"بابن السوداء ".

ظهر له نشاط ملحوظ في الشام والعراق ومصر خاصة، يرسم خططا ويدلي بأراء هدامة ليلفت المسلمين عن دينهم وطاعة خليفتهم، ويوقع بينهم الفرقة والخلاف ..

يقل ابن الأثير : " وعبد الله بن سبأ كان يهوديا وأسلم أيام عثمان، ثم تنقل في الحجاز ثم بالبصرة ثم بالكوفة ثم بالشام يريد إضلال الناس فلم يقدر منهم على ذلك ."(1)ثم خرج حتى أتى مصر، وفيها أدرك عبد الله بن سبأ أنه لكي ينشر الاضطراب في الدولة عليه أن يوجه ضربته الأولى إلى الخليفة ذاته، وإلى شرعية منصبه كخليفة للمسلمين، ولكي يتيسر له ذلك، لابد أن يرفع في وجه الخليفة شخصيبة من الصحابة تضاهي الخليفة في أرومته وأسبقيته.

وقد أتى بمقدمات صادقة وبنى عليها مبادئ فاسدة راجت لدى السذج والغلاة وأصحاب الأهواء من الناس وقد سلك في ذلك مسالك ملتوية لبَّس فيها على من حوله حتى اجتمعوا عليه، فطرق باب القرآن يتأوله على زعمه الفاسد .فقد أخذ يتحدث إلى الناس بأن النبي محمدا أحق بالرجعة من عيسى بن مريم فكان يقول : " العجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ويكذب بأن محمدا يرجع، وقد قال الله عز وجل :{إن الذي فرض عليك القرآن لرادُّك إلى معاد} فمحمد أحق بالرجوع من عيسى فقبل ذلك عنه، ووضع لهم الرجعة، فتكلموا فيها ثم قال لهم بعد ذلك :إنه كان ألف نبي ولكل نبي وصي وكان علي وصي محمد، ثم قال :محمد خاتم الأنبياء وعلي خاتم الأوصياء ،ثم قال بعد ذلك :ومن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ووثب على وصي رسول الله وتناول أمر الأمة، ثم قال لهم بعد ذلك : " إن عثمان أخذها بغير حق، وهذا وصي رسول الله صلى الله عليه وسلم فانهضوا في هذا الأمر فحركوه، وابدأوا بالطعن على أمرائكم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس، وادعوهم إلى هذا الأمر، فبث دعاته وكاتب من كان استفسد في الأمصار وكاتبوه ودعوا في السر إلى ما عليه رأيهم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عيوب وُلاَّتهم، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك، ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يصنعون، فيقرأه أولئك في أمصارهم وهؤلاء في أمصارهم، حتى تناولوا بذلك

(1) . الكامل 154/3

المدينة، وأوسعوا الأرض غذاعة، وهم يريدون غير ما يظهرون، ويسرون غير ما يبدون، فيقول أهل كل مصر :إنالفي عافية مما ابتلي به هؤلاء إلا أهل المدينة فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار. فقالوا :إنا لفي عافية مما فيه الناس ".(1)

ويظهر من هذا النص الأسلوب الذي اتبعه بن سبأ، فهو أراد أن يرفع من منزلة علي بن أبي طالب، وأن يجعل عثمان مغتصبا فيوقع بين اثنين من الصحابة، أحدهما قديظن نفسه مهضوم الحق وهو علي . ثم حاول بعد بعد ذلك أن يحرك الناس على أمرائهم بالقول بمبدأ معروف وهو : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .فجعل الناس يثورون لأصغر الحوادث على أمرائهم، ثم إنه لما لم يحصل على كامل مطلوبه من ذلك لأن المنكرات لم تكن كما كان يود أن تكون صار يحض أتباعه على إرسال الكتب بأخبارسيئة مفجعة عن مصرهم إلى بقيةالأمصار، فيتخيل أهل البصرة مثلا أن حال أهل مصر على أسوأما يكون واليهم، ويتخيل أهل مصر أن حال أهل الكوفة على أسوأ ما يكون من قبل أميرهم .وكان هل المدينة يتلقون الكتب من الأمصار جميعا بحالها وسوئها من أتباع بن سبأ.(2)

بث ابن سبأ دعاته في الأمصار يؤلبون المسلمين على عثمان يأمر عماله بقتل الثوار أو من بعض كبار الصحابة. كعمار بن ياسر . يطالبون الناس باثورة ضد عثمان .ومنذ أن أخبر الصحابة بالمدينة بتحركات ودعاوى ابن سبأ بدأ عثمانيتصدى للفتنة .

عثمان يتصدى للفتنة

بدأ الخليفة بالتصدي للفتنة من خلال المحاور الثلاثة الآتية :(3)

1 . إرسال لجنة لتقصي الحقائق :

بعد أن وصل المدينة أنباء تحركات بن سبأ، وعلم الخليفة بهذا، أشار على الصحابة بقوله :" أشيروا علي، قالوا :نشير إليك أن تبعث رجالا ممن تثق بهم إلى الأمصار حتى يرجعوا إليك بأخبارهم فدعا محمد بن مسلمة فأرسله إلىالكوفة، وأرسل أسامة بن زيد إلى البصرة، وأرسل عمار بن ياسر إلى مصر، وأرسل عبد الله بن عمر إلى الشام" .

(1) . الطبري : تاريخ 647/2

(2) . يوسف العش :الدولة الأموية ... .ص 60

(3) . نعمان الطيب سليمان ..وآخرون :الخلفاء الراشدون .ص 153، 156

اختار عثمان هؤلاء الرجال وعهد إليهم بالسفر إلى الأقاليموالتحقق من مسلك كل والٍ، فماذا كان جواب أولئك السفراء ؟ لقد عادوا جميعا عدا عمار بن ياسر الذي أرسل لتقصي الحقيقة في مصر فطال بها مكثه، حيث استماله قوم بمصر، وقد انقطعوا إليه منهم عبد الله بن السوداء .أما باقي أعضاء لجنة تقصي الحقائق فقد قدموا للخليفة تقاريرهم وما شهدوه وما سمعوه، وجاء في تقريرهم :"ما أنكرنا شيئا، ولا أنكره أعلام المسلمين ولا عوامهم وقالوا جميعا :الأمر أمر المسلمين، إلا أن أمراءهم يقسطون بينهم ويقومون عليهم" .(1)

2 . دعوة المظلومين من الأمصار لتحقيق ظلاماتهم :

أراد عثمان أنيتأكد من صحة تقرير لجنة تقصي الحقائق، وأن يبرئ ذمته أمام الرعية من أي ظلم لحق أحدا من الناس، فأصدر منشورا وزع في الأمصار يطلب من كل ذي حق أو شكوى ان يحضر إلى مكة في موسم الحج لتقديم شكواه إليه، ومما جاء في كتابه : "وقد رفع إلي أهل المدينة أن أقواما يشتمون وآخرون يضربون، فيا من ضرب سِرًّا، وشتم سرا، من ادعى شيئا من ذلك فليواف الموسم فليأخذ بحقه حيث كان مني أو من عمالي، أو تصدقوا فإن الله يجزي المتصدقين... ".(2)

3 . عثمان يستشير عمال الأمصار :

لم يطمئن عثمان إلى الأخبار التي تلقاها من لجنة تقصي الحقائق، وكان لابد لعثمان من الاجتماع بعماله في موسم الحج لسنة 34هـ لبحث القضية في حضورهم، فبعث يستقدمهم إليه وهم : عبد الله بن عامر، وعبد الله بن سعد، ومعاوية بن أبي سفيان،وأدخل معهم في المشورة سعيد بن العاص، وعمرو بن العاص، فلما اجتمعوا عنده قال : " ويحكم ما هذه الشكاية وما هذه الإذاعة ؟ إني والله لخائف أن تواتو مصدوقا عليكم، وما يعصب هذا إلا بي أي يناط وينسب إلي . فقالوا له :ألم تبعث؟ ألم نرجع إليك الخبر عن القوم ؟ ألم يرجعوا ولم يشافهمأحد بشيء ؟ لا والله ما صدقوا ولا بروا ،ولانعلم لهذا الأمر أصلا ..قال :فأشيروا علي.فقال سعيد بن العاص :هذا أمر مصنوع يصنع في السر فيلقى به غير ذي المعرفة، فيخبربه، فيتحدث به في مجالسهم .قال :فما دواء ذلك ؟ قال : طلب هؤلاء القوم، ثم قتل هؤلاء الذين يخرج هذا من عندهم .وقال عبد الله بن سعد : خذ من الناس الذي عليهم إذا عطيتهم الذي لهم فإنه خير من أن تدعهم، قال معاوية :وقد وليتني فوليت قوما لايأتيك عنهم إلا الخير ..قال عثمان : فما الرأي ؟ قال : حسن

(1) . الطبري : تاريخ 648/2

(2) . المصدر نفسه 648/2

الأدب . قال عثمان :فما ترى يا عمرو ؟قال :أرى أنك قد لنت لهم وتراخيت عنهم ،وزدتهم على ما كان يصنع عمر بن الخطاب، فأرى أن تلزم طريقة صاحبيك، فتشتد في موضع الشدة، وتلين في موضع اللين ".(1)

أجمع عمال الأمصار حول ما أذيع وعما أشيع من مساوئ على أنها مفتريات وأراجيف مغرضة لا هدف من ورائها سوى إثارة الفتنة، وطالبوا الخليفة أن يأخذ المحرضين للفتنة بالشدة والضرب على أيديهم، ولكن عثمان لم يستجب لمشورتهم، وإنما أوصاهم بقوله :"كفكفوا الناس، وهبوا لهم حقوقهم، واعتفروا لهم، وإذا تعوطيت حقوق الله فلا تدهنوا فيها " .(2)

لقد تهاون العمال في تنفيذ وصية الخليفة وتوجيهاته، فلم يمنعوا الناس من الخروج على الخليفة ،ولم يبصروهم عاقبة أتباعهم زعماء الفتنة، وتركوا لزعماء الفتنة مجال الركة، ولم يحزموا أمورهم معهم فانتشرت الفتنة .

ولو أن هؤلاء العمال أخلصوا يومئذ في معونته على أمره لوضعوا استقالاتهم جميعا بينيديه، ولكن موقفهم كان مغايرا مما جعل الخليفة يتردد في عزلهم وبخاصة وهو يرى نار الفتنة من حوله تشتعل بشدة .

وعندما انتهت اجتماعات الخليفة بعماله في موسم الحج، وتأهبوا للعودة إلى أمصارهم عرض معاوية على الخليفة أن يصحبه إل الشام حتى تستقر الأمور، وخوفا من أن يتركه وجيدا في المدينة فيهاجمه من لا طاقة له بهم .

فرفض الخليفة قائلا :" أنا لا أبيع جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء وإن كان فيه قطع خيط عنقي".

وردَّ معاوية يعرض عليه أن يرسل جيشا من الشام يرابط بالمدينة ويحافظ على حياة الخليفة، فرفض الخليفة قائلا : " وأنا أقتر على جيرا ن رسول الله صلى الله عليه وسلم الأرزاق بجند تساكنهم، وأضيق على أهل دار الهجرة والنصرة .قال معاوية :و الله ياأمير المؤمنين لتغتالن أو لتغزين، قال : حسبي الله ونعم الوكيل ".(3)

---

(1) . الطبري : تاريخ 648/2

(2) . المصدر نفسه

(3) . الطبري : تاريخ 650/2

الثوار في المدينةومقتل عثمان رضي الله عنه

لما رجع الأمراء إلى أمصارهم . بعد اجتماع عثمان بهم . لم يكن للسيئة . دعاة الفتنة . سبيل إلا أن يكاتبوا أشياعهم من أهل الأمصار أن يتوافدوا إلى المدينة في رجب سنة 35 هـ، لينظروا فيما يريدون وأظهروا أنهم يأمرون بالمعروف .ويذكروا لعثمان أخطاء. يقررونه بها، ويزعمون بعد ذلك للنآس أنه لم يخرج عنها، وأنه لم يتب فيحل لهم بذلك دمه،فلما قدموا المدينة ناظرهم عثمان فيما نسبوه إليه ،وردّ عليهم افتراءاتهم، وفسّر لهم صدق أعما له .ثم نصحته حاشيته أن يقتلهم، فأبى إلا أن يتركهم يرجعون إلى أمصارهم، فهم في نظره لم يفعلوا ما يوجب قتلهم .فرجعوا بعد مناظرتهم لعثمان إلى أمصارهم وتواعدواأن يعودوا في شوال سنة 35هـ أي في السنة نفسها .

ويذكر سيف بن عمر خبر عودتهم إلى المدينة في شوال من تلك السنة في صفة الحجاج، فيقول ما خلاصته : "لما كان شوال سنة خمس وثلاثين خرج أهل مصر في أربع رفاق على أربعة أمراء المقلل يقول ستمائة، والمكثر يقول ألف ..ولم يجترئوا إن يعلموا الناس بخروجهم إلى الحرب، وإنما خرجوا كالحجاج ومعهم بن السوداء ...وخرج أهل الكوفة في عدد كعدد أهل مصر، وكذا أهل البصرة ،ولما اقتربوا من المدينة شرعوا في تنفيذ مرحلة أخرى من خطتهم، فقد اتفق أمرهم أن يبعثوا اثنين منهم ليطلعا على أخبار المدينة ويعرفا أحوال أهلها، وذهب الرجلان فلقيا أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وعلياً وطلحة والزبير، وقالا : إنما جئنا نستعفي عثمان من بعض عمالنا، واستأذنا لرفاقهم بالدخول، في الصحابة، وقال علي رضي الله عنه : طلا أمركم بالإقدام على عثمان، فن أبيتم فبيض سيفرخ" .(1)

ونتيجة هذا الفشل احتاج الأمر إلى أسلوب آخر فكان أن اتفق نفر من أهل مصر فأتوا " عليا"، ومن أهل البصرة فأتوا " طلحة "، ومن أهل الكوفة نفر وأتوا " الزبير"فكلموهم وعرضوا عليهم، لكنهم ردوهم على أعقابهم وهم يقولون : " لقد علم الصالحون أن جيش ذي المروة وذي خشب ملعونين على لسان محمد صلى الله عليه وسلم فارجعوا لا صحبكم الله " .(2)

عادت الجماعات المتمردة إلى أوكارها وهي تجر أذيال الخيبة، فقد خابت ظنونهم،ولم يستجب لهم أحد من الصحابة، وتظاهروا بالعودة ورجعوا إلى عسكرهم على بعد ثلاث مراحل . وقد فعلوا ذلك كي يفترق أهل المدينة الذين كانوا يمانعونهم من دخول كامل جيشهم إلى المدينة، وتفرق أهل المدينة بعد خروجهم، فرجع الثوار،فلم يشعر أهل المدينة إلا والتكبير في نواحيها .وأحاطوا بدار عثمان، وقالوامن كف يده فهو

(1) . الطبري : تاريخ 652/2

(2) . المصدر نفسه 653/2، ابن كثير: البداية والنهاية 174/7

آمن" .(1) فقال علي للثوار: ماردكم بعد ذهابكم ورجوعكم عن رأيكم، فقال أهل مصر: أخذنا مع البريد كتابا موقعامن عثمان يأمر عامله بقتلنا،قال علي :كيف علمتم يا أهل الكوفةويا أهل البصرة بخبر الكتاب المرسل إلى أهل مصر،وقد سرتم مراحل على طريق بلدكم ؟ هذا والله أمر أبرم بالمدينة .فقال الثور ظنوا ما شئتم فلن نحيد عن طلب اعتزال عثمان، واستقروا بالمدينة .

وقال وفد مصر لعلي: " قم معنا إلى عثمان، قال والله لا أقوم معكم، إلى أن قالوا: فلم كتبت لنا ؟ فقال والله ما كتبت عليكم كتابا قط .فنظر بعضهم إلى بعض قائلين: لهذا تقاتلون، أو لهذا تغضبون، ثم انطلقوا حتى دخلوا على عثمان فقالوا: كتبتفينا بكذاوكذا قال: إنما هما اثنتان، أن تقيمواعلى رجلين من المسلمين، أو يميني بالله الذي لاإله إلا هو ما كتبت ولا أمللت ولا علمت ..وقد تعلمون أن الكتاب يكتب على لسان الرجل، وقد ينقش الخاتم فقالوا: فقد والله أحلَّ الله دمك ونقضت العهد والميثاق " .(2)

ويبدو لنا أن مسألة هذه الكتب هي من تدبير عبد الله بن سبأ وأتباعه ليعيد إلى حركته الحياة بعد أن أوشكت أن تموت، وأن الفرصة التي عمل لها سنوات أوشكت أن تضيع فعمد إلى هذه المسرحية التي مثلت في الطريق الغربي الذي كان المصريون فيه وحدهم.بالإضافة إلى أن ا لكتاب الذي زُور على عثمان ليس هو الكتاب الوحيد .فعائشة رضي الله عنها تتَّهم أيضا بأنها كتبت إلى الناس تأمرهم بالخروج على عثمان ! !ثم تنفي هي ذلك وتقول: "لا والذي آمن به المؤمنون، وكفر به الكافرون ما كتبت سوداء في بيضاء حتى جلست مجلسي هذا ".(3)

وعلي رضي الله عنه يتهمه الثوار بأنه كتب إليهم أن يقدموا عليه المدينة فينكر ذلك عليهم ويقسم: " والله ما كتبت إليكم كتابا " .

و يُتُّهم الصحابة بكتابة الكتب إلى أهل الأمصار. يأمرونهمبالقدوم إليهم، فدين محمد قد فسد وترك، والجهاد في المدينة خير من الرباط في الثغور البعيدة .

ولما أدرك عثمان رضي الله عنه خطورة الوضع في المدينة، وتصلب المتمردين على رأيهم لتنفيذ خطتهمبعث بكتب إلى أهل الأمصار يستنجد بهم وقال في كتابه عن الثوار: "إنهم أغاروا علينا في جوار رسول

(1) . ابن كثير: البداية والنهاية 174/7

(2) . الطبري : تاريخ 656/2

(3) . ابن كثير: البداية والنهاية 214/7

الله صلى الله عليه وسلم وحرمه وأرض الهجرة، وثبت إليهم الأعراب فهم كحزاب أيام الأحزاب فمن قدر على اللحاق بنا فليلحق " .(1)

ولما وردت الكتب إلى أهل الأمصار خرجوا، وفيهم عدد كبير من الصحابة يتسابقون في الدفاع عنه، ويستعينون بأبنائهم في الوقوف معه، فإذا هو يستقبلهم ويقسم عليهم أن يكفوا أيديهم، فيسكنوا حتى أن بعضهم لبس الدرع مرتين، وحى أن الأنصار ليسألونه أن يكونوا أنصار الله مرتين!! فيأمرهم بالكف ويقول :لاحاجة لي في ذلك .

ويستمر الحصار من أواخر ذي القعدة إلى الثامن عشر من ذي الحجة، ولما جاء يوم الجمعة خرج عثمان إلى المسجد فصلى بالناس وقام إلى المنبر يخطب، فحصبوه على المنبر حتى صرع وحمله الناس إلى بيته ثم منعوه من الصلاة في المسجد، وصلى مكانه رئيس وفد المصريين الغافقي بن حرب ..وتفرق أهل المدينة في بساتينهم ولزموا بيوتهم لايخرج أحد، ولايجلس إلا وعليه سيفه خوفا على نفسه، وحاصر الثوار المدينة أربعين يوما، ومن تعرض لهم قتلوه .

واشتد حصارهم لعثمان رضي الله عنه ومنعوا عنه الماء والطعام ولم يسمحوا لأم المؤمنين أم حبيبة أن تدخل عليه بالماء، وضربوا بغلتها وكادوا أن يسقطوها من عليهافتلقاها الناس وتعلقوا بها وأخذوها وقد كادت تقتل .

وبينما والخليفة عثمان رضي الله عنه في شدة الحصار ترامت الأخبار بوصول النجدات من الأمصار، فلما سمع المتمردون بذلك رأوا أنه لاينجيهم مما وقعوا فيه إلا حسم الأمر وقتل عثمان وقالوا : "لايخرجنا مما وقعنا فيه إلا قتل هذا الرجل، فيشغل بذلك عنا، ولم يبق خصلة يرجون بها النجاة إلا قتله " .(2)

وقصدوا باب بيته ليدخلوا فيه، فمنعهم من ذلك الحسن وبن الزبير ومحمد بن طلحة ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص ومن كان من أبناء الصحابة .ودافعوهم فناداهم عثمان : الله الله أنتم في حِلٍّ من نصرتي .وبذلك تنتهي حركة الحصار بالفشل فتسوَّر الثوار على عثمان الدار، وتتوزع رماحهم دماءه الطاهرة وهو يقرأكتاب الله، وزوجته نائلة بنت الفرافصة تدفع عنه السيف بيدها فقطع أصبعها، وكان قتله رضي الله عنه لثمان عشر ليلة من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين .(3)

---

(1) . الطبري : تاريخ 654/2

(2) . الطبري : تاريخ 674/2

(3) . المصدر نفسه 689/2

وبقي الشهيد عثمان ثلاثة أيام من غير دفن، ثم دفن ليلا في غفلة من خصومه في مكان يعرف باسم (حش كوكب) وهو بستان عند بقيع الغرقد ولم يشترك في جنازته إلا نفر قليل من الصحابة .(1)

وإذا كان لقائل أن يقول :كيف قتل عثمان رضي الله عنه وبالمدينة جماعة من كبار الصحابة . رضوان الله عليهم ؟وهو سؤال وضعه ابن كثير ثم أجاب عنه موضحا ما يلي :

1 . إن كثيرا منهم أو كلهم لم يكونوا يظنون أن يبلغ الأمر إلى قتله .

2 . أن الصحابة دافعوا عنه ومانعوا دونه، فلما كان التضييق الشديد عزم عثمان أن يكفوا أيديهم حقنا لدماء المسلمين ففعلوا، فتمكن المحاصرون مما أرادوا .

3 . إن الثوار اغتنموا فرصة غياب كثير من أهل المدينة في موسم الحج ،وغيبتهم في الثغور والأمصار ،وربما لم يبق من أهل المدينة ما يقابل عدد الثوار الذين كانوا قريبا من ألفي مقاتل .

4 . إن كبار الصحابة قد بعثوا أولادهم إلى الدار لحماية عثمان رضي الله عنه في انتظار قدوم الجيوش من الأمصار لنصرته .(2)

ومن جهة أخرى يقول المالقي :فإن قيل :لما منعهم عثمان عن نصرته وهو مظلوم، وقد علم أن قتالهمعنه نهي عن المنكر وإقامة حق يقيمونه ؟فالجواب أن منعه إياهم يحتمل وجوها كلها محمودة :

أحدها :علمه بأنه مقتول مظلوما لاشك فيه، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد أعلمه أنه يقتل مظلوما وأمره بالصبر، فلما أحاطوا به تحقق أنه مقتول وأن الذي قاله النبي صلى الله عليه وسلم حق لا بد أن يكون (لأنه وحي من الله، إذ سبق في علمه أنه سيقتل) .و كان عنده أن من طلب الانتصار لنفسه والذّب عنها فليس هذا بصابر. إذ وعد من نفسه بالصبر.

الوجه الثاني: أنه كان قد علم أنّ في الصحابة قلة عدد، وأنّ الذين يريدون قتله كثير عددهم، فلو أذن لهم بالقتال لم يأمن أن يتلف من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بسببه كثير، فوقاهم بنفسه إشفاقا منه عليهم لأنه راعٍ عليهم .والراعي يجب عليه أن يحفظ رعيته بكل ما أمكنه.ومع ذلك فقد علم أنه مقتول)فصانهم بنفسه حقنا لدماء المسلمين.

(1) . اليعقوبي : تاريخ 176/2. الطبري : تاريخ 687/2

(2) . ابن كثير :البداية والنهاية 197،198/7

الوجه الثالث: أنه لما علم أنها فتنة، وأنّ الفتنة إذا سُلّ فيها السيف لم يؤمن أن يقتل فيها من لا يستحق القتل، فلم يختر لأصحابه أن يسلّوا السيف في الفتنة إشفاقا عليهم، وتذهب فيها الأموال، ويهتك فيها الحريم، فصانهم عن جميع هذا .

الوجه الرابع: يحتمل أن يكون رضي الله عنه صبر عن الانتصار ليكون الصحابة شهودا على من ظلمه، وخالف أمره، وسفك دمه بغير حق، لأن المؤمنين شهداء الله في أرضه، ومع ذلك لم يحب أن يهرق بسببه دم مسلم، ولا يخلف .النبي صلى الله عليه وسلم في أمته بسفك دم رجل مسلم .(1)

ويعلق طه حسين عن مقتل عثمان فيقول:" ... والناس يختلفون فيه وفي قاتليه أشد الاختلاف وأعظمه، ولكن الشيء الذي لا يقبل شكاً ولا نزاعاً أنّ الله لم يحل دم عثمان لقاتليه .فقد يكون مخطئا في سياسته وقد يكون مصيبا .وقد يكون أصحابه قد جاروا عن علم أو عن غير علم، فأقصى ما يباح للمنكرين عليه والمخاصمين له أنيثوروا به ويحملوا الأمة على هذه الثورة، فإن ظفروا اجتماع الكلمة على خصومته اختاروا من المسلمين ممثلين للأمصار والأقاليم، وكان على هؤلاء الممثلين أن يحاوروا عثمان ويناظروه ،وأن يقولوا له ويسمعوا منه، فإن رأوا إقراره أقرره ،وإن رأوا خلعه خلعوه ثم اختاروا للمسلمينإماما مكانه، ثم تركوا للإمام محاسبة عثمان على ما يمكن أن يكون لهم قبله من الأموال والدماء، فأما أن ينتدب الثائرون ولم يوكلهم المسلمون عنهم فيخلعوا الإمام، فلم يكن ذلك لهم، فكيف وهم لم يخلعوه، وإنما سفكوا دمه ؛وكان دمه حراما كدم المؤمنين جميعا ؛ وكانت لدمه بعد ذلك حرمة أخرى هي حرمة الخلافة .

والناس يعتذرون عن هؤلاء الثائرين معاذير كثيرة يقولون إنهم لم يكونوا يستطيعون خلعه خوفا من عماله في مصر والشام والعراق، ولم يكونوا يستطيعون الانتظار به خوفا من هؤلاء العمال، ولو لم يقتلوه لقتلهم هو أو لقتلهم عماله، ولكن كل هذه المعاذير لاتبيح لهم أن يسفكوا دما حرّمه الله، وأن يستبيحوا سلطان الخلافة على هذا النحو .

ولعلّ العذر الوحيد الذي ينهض لهم كما ينهض لعثمان وينهض للذين اختصموا بعدهم في هذه القضية فسفكوا دماء هم بأيديهم وأباحوا من النفوس والأموال ما حرمّا الله ،هو أن ظروف الحياةكانت أقوى منهمجميعا، وأنّ الله قد كتب عليهم أن يفتنهم في دينهم ودنياهم هذه الفتنة الكبرى التي فسّرها عليّ لأهل الكوفة أحسن تفسير حين قال: " استأثر عثمان فأساء الأثرة، وجزعتم فأسأتم الجزع ...". (2)

(1) . الما لقي : التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان .ص 194

(2)-المالقي : التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان .ص 194

بعد هذا كله علنا أن نكون قد عرفنا ملابسات الفتنة التي انتهت بمقتل عثمان فقد ابتدأت بمآخذ كانت تمكن خلفها بواعث الفتنة، ثم تبلورت على شكل بوادر خلاف شملت معظم أقطار الخلافة ،ثم كان لابن سبأ دورفي استغلال أجواء الفتنة وأخيرا تصاعدت الأحداث . وأقبل الثوار وفيهم ابن سبأ ومن كان يكاتبه ،وانتهى الأمر باستشهاد الخليفة ! فلله الأمر من قبل ومن بعد .. ! !

الفصلالخامس:

في خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه

القرارات الأولى

قد واجه علي رضي الله عنه في بداية حكمه مشكلتين شائكتين أولاهما :القصاص من قتلة عثمان، والثانية :عزل ولاة عثمان الذين تفاقمت الثورة بسببهم، فبأي المشكلتين يبدأ؟!

وكان رأي كبار الصحابة وعلى رأسهم طلحة والزبير أن يبدأ علي بمعالجة المشكلة الأولى لأنهم بايعوه على ذلك، فاجتمعوا إليه وطالبوه بضرورة القصاص من قتلة عثمان.

والحقيقة أن عليا أمام هذا المطلب كان في موقف لايحسد عليه، فأين هم قتلة عثمان؟ إنهم وسط الثوار الذين سيطروا على المدينة وصارت مقاليد الأمور بها في أيديهم، وانضم إليهم كل من سولت له نفسه الخروج لنهب أو لسلب . فقد انضم إليهمأعراب البادية.وعبيد أهل المدينة. فعبثوا في المدينة فسادا، وساموا أهلها الذلوالهوان.ولم يكن الصحابة بعيدين عن ذلك فقد كان واقفا مشهودا أمام أعينهم .حتى أن طلحة والزبير مع عدد من الصحابة دخلوا على علي فقالوا :" يا علي، إنا قد اشترطنا إقامة الحدود، وإن هؤلاء القوم قد اشتركوا في دم هذا الرجل، وأحلوا بأنفسهم فقال لهم :يااخوتاه، إني لست أجهل ما تعلمون، ولكني كيف أصنع بقوم يملكونا ولانملكهم، هاهم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم، وثابت إليهم أعرابكم وهم خلالكم يسومونكم ما شاءوا، فهل ترون موضعا لقدرة على شيء مما تريدون ؟قالوا :لا، قال :فلا والله لاأرى إلا رأيا ترونه إن شاء الله ".(1)

ومن ناحية أخرى فإن قتلة عثمان غير معروفين على وجه التحديد حتى ولاالتقريب فإن نائلة زوجة عثمان رضي الله عنه والتي شهدت مقتله أجابت عليا حين سألها عن القتلة، قالت :لا أدري، دخل عليه رجال لا أعرفهم إلا أن أرى وجوههم، وكان معهم محمد بن أبي بكر، فأتى به فسأله فأجاب بأنه لم يقتل عثمان لأنه ذكَّره بأبيه وقال له :لو رآني أبوك لبكاني ولساءه مكانك مني، فتركه محمد وحلف أنه لم يقتله

(1) . المصدر نفسه

ولم يمسه، فقالت نائلة :صدق، لكل ذلك كان رأي علي هو الانتظار والتروي في مواجهة مشكلة القصاص من قتلة عثمان حتى تهدأالأحوال وتستقيم الأمور ويقوى سلطان الخلافة ثم تبدأ معالجتها.(1)

أما المشكلة الثانية : وهي عزل الولاة الذين كان سلفه عثمان رضي الله عنه قد عينهم على الأمصار وكان علي يدرك خطورة هذا القرار وما يترتب عليه من عواقب، ولكنه لم يتراجع ولم يتردد في تطبيقه برغم ما نصحه الناصحون وأشفق عليه المشفقون ..لأنه كان يرى أن هؤلاء الولاة الذين استباحوا الغنائم المحظورة، وتمرغوا في الدنيا وطمعوا وأطمعوا رعاياهم في بيت مال المسلمين .هم الذين أثاروا على عثمان سخط السواد وسخط الفقهاء المتحرجين .و الحفاظ الغيورين على فضائل الدين، فهم أصل البلية ومبعث الفتنة الثائرة .

والواقع أنه من حق الحاكم أن يختار عماله ومساعديه ،ويعزل ويولي من يراه من أهل الكفايةوالصلاح ،فعل ذلك سابقوه ،فعزل عمر خالد بن الوليد، وغير عثمان بعض عمال عمر بعد سنة من خلافته بناء على وصية عمر أن يستبقي العمال سنة، ولم يكن علي بدعا في هذا الأمر، ولكن ظروف الفتنة كانت تجعل هذا القرار صعب التنفيذ مثيرا للصراعات .(2)

وفرَّق علي عماله على الأمصار، فبعث عثمان بن حنيف على البصرة، وعمارة بن شهاب على الكوفة وكانت له هجرة ،وعبيد الله بن عباس على اليمن ،وقيس بن سعد على مصر، وسهل بن حنيف على الشام .

فأما سهل فإنه خرج حتى إذا كان بتبوك لقيته خيل فقالوا :من أنت ؟قال :أمير، قالوا :على أي شيء؟ قال : على الشام، قالوا :إن كان بعثك عثمان فحيَّ هلا بك، وإن كان بعثك غيره فارجع .قال :أوما سمعتم بالذي كان ؟ قالوا :بلى، فرجع إلى علي، وأما قيس بن سعد فإنه لما انتهى إلى أيلة لقيته خيل فقالوا له :من أنت؟قال :من فالَّة عثمان، فأنا أطلب من آوي إليه فأنتصر به لله، قالوا : من أنت ؟ قال : سعد بن سعد، قالوا : إمض، فمضى حتى دخل مصر، فافترق أهل مصر فرقا، فرقة دخلت في الجماعة فكانوا معه، وفرقة اعتزلت بخرنباء (3)وقالوا :إن قتل قتلة عثمان فنحن معكم، وإلا فنحن على جديلتنا حتى نحرك أو نُصيب حاجتنا، وفرقة قالوا :نحن مع علي مالم يُقِد من إخواننا، وهم في ذلك مع الجماعة، وكتب قيس إلى علي بذلك ،وأما عثمان بن حنيف فسار ولم يرده أحد عن دخول البصرةولم يجد لابن عامر في ذلك رأيا ولا استقلالا بحرب، وافترق الناس بها، فاتبعت فرقة القوم، ودخلت فرقة في الجماعة، وقالت فرقة :ننظر ما

(1) . نعمان الطيب سليمان وآخرون :الخلفاء الراشدون .مرجع سابق .ص 176

(2) . الرفاعي :عصر الخلافة الراشدة .مرجع سابق .ص 205

(3) . خرنباء: موضع من أرض مصر . (معجم البلدان 362/2)

يصنع اهل المدينة فنصنع كما صنعوا، وأما عمارة بن شهاب فلما بلغ زُبالة (1) لقيه طليحة بن خويلد، وكان خرج يطلب بثأر عثمان وهو يقول :لهفي على أمر لم يسبقني ولم أدركه ! وكان خروجه عند عود القعقاع من إغاثة عثمان، فلما لقي عمارة قال له :ارجع، فإن القوم لايريدون بأميرهم بدلا، فإن أبيت ضربت عنقك، فرجع عمارة إلى علي بالخبر، وانطلق عبيد الله بن عباس إلى اليمن، فجمع يعلى بن مُنية كل شيء من الجباية ،وخرج به إلى مكة فقدمها بالمال، ودخل عبيد الله اليمن .

ولما رجع سهل بن حنيف من الشام وأتت عليا الأخبار دعا طلحة والزبير فقال :إن الأمر الذي كنت أحذركم قد وقع، وإن الذي قد وقع لايدرك إلا بأمانته، وإنها فتنة كالنار كلما سعرت ازدادت واستثارت فقالا له :ائذن لنا نخرج من المدينة فإما أن نكاثر وإما أن تدعنا، فقال :سأمسك الأمر مااستمسك، فإذا لم أجد بُدا فآخر الداء الكي.(2)

وإذا كان بعض الباحثين يرى أن سبب تفاقم الفتنة هو عزل علي رضي الله عنه لجميع ولاة عثمان قبل أن تصل إليه بيعة أهل الأمصار، وقد حذره عاقبة ذلك المغيرة بن شعبة . فمن الملاحظ كما يذكر الدكتور محمد أمخزون(3) أن هذا المأخذ غير وجيه لعدة أمور :

الأول :أن عليا رضي الله عنه إمام مجتهد له أن يعزل جميع عمال عثمان إذا رأى المصلحة في ذلك، وقد ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهو المعصوم خالد بن سعيد بن العاص على صنعاء، وعمرو بن العاص على عُمان ،فعزلهما الخليفة من بعده الصديق رضي الله عنه عزل خالد وولَّى مكانه المهاجر بن أبي أمية، وعزل عمروا ولَّى مكانه حذيفة بن محصن، وقد ولَّى أبو بكر القائدين العظيمين خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة. رضي الله عنهما . فعزلهما عمر بن الخطاب مع كفاءتهما، وولَّى الفاروق رضي الله عنه على مصر عمرو بن العاص وعلى الكوفة المغيرة بن شعبة فعزلهما ذو النورين، وولَّى على مصر بن أبي سرح، وعلى الكوفةسعد بن أبي وقاص فهل ينتقدعاقل الصديق والفاروق وذو النورين في عزلهم هؤلاء العمال الأكفاء ! إن لكل وقت أحوالا وظروفا تطرأ فيحمل اللاحق على مالا يراه السابق من الاجتهاد، ويرى الشاهد مالايراه الغائب .

الثاني :غير صحيح قولهم :إنه عزل جميع عمال عثمان، فإن العزل لم يتحقق إلا في معاوية بن أبي سفيان في الشام، وخالد بن أبي العاصبن هشام في مكة، وأبي موسى الأشعري في الكوفة، على أنه أقرَّه بعد

(1) . زبالة :موضع على طريق مكة من الكوفة. (معجم البلدان 129/3)

(2) . ابن الأثير :الكامل 201،202/3. ابن كثير :البداية والنهاية 3،4/3

(3) . تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة ...مرجع سابق .ص 98،102

ذلك، أما البصرة فخرج منها عبد بن عامر ولم يول عثمان عليه أحدا، وفي اليمن أخذ أميرها يعلى بن منية رضي الله عنه مال جباية اليمن وقدم مكة بعد مقتل عثمان وانضم إلى طلحة والزبير وحضر معهم موقعة الجمل،ووفد بن أبي سرح عامل مصر واستناب بن عمه عليها، فلما رجع إليها وجد بن أبي حذيفة تغلب عليها فطرده عنها، فذهب إلى الرملة بفلسطين ومكث بها حتى مات .

وهكذا فغن أميري اليمن والبصرة عزلا أنفسهما، وأمير مصر عزله فتغلب عليها بن أبي حذيفة، وأمير الكوفة أقره علي رضي الله عنه في منصبه، فلم يرد العزل حقيقة إلا في حق معاوية والي الشام وخالد بن أبي العاص والي مكة .

ومن المؤكد أن عليا لم يول أحدا ممن كان له ضلع في مقتل عثمان رضي الله عنه بل ولَّى أخيار الناس على المسلمين ...

الثالث :وأما قولهم :إنه عزل العمال قبل أن تصل إليه بيعة أهل الأمصار ،فإن تولية الإمام العمال على الأمصار غير مشروط بوصول بيعة أهلها له عند جميع المسلمين، فمتى بايع أهل الحل والعقد أي خليقة لزمت بيته جميع البلدان النائية ن مركز خلافته شرعا وعقلا .

ولو كانت تولية الخليفة العمال على الأمصار متوقفة على وصول بيعة أهلها له ماتمت بيعة الصديق رضي الله عنه لأنه تصرف بإرسال بعثة أسامة ومحاربة المرتدين ومانعي الزكاة قبل وصول بيعة أهل مكة والطائف وجواثي في البحرين، وكذلك الفاروق رضي الله عنه فإنه استهل خلافته بعزل خالد بن الوليد وتولية أبي عبيدة بن الجراح قائدا عاما على جيوش المسلمين بالشام قبل وصول بيعة أهل اليمن وجيوش المسلمين بالشام والعراق إليه، وتصرف ذو النورين رضي الله عنه في أمور المسلمين قبل وصول بيعة الأمصار إليه .

الرابع :بالنسبة لما نقله هؤلاء الباحثون من كتب التاريخ من تحذير المغيرة بن شعبة عليا عاقبة عزله العمال في وقت مبكر ثم راجعه ونصحه بعزلهم، وقول بن عباس لعلي :لقد نصحك في الأولى وغشَّك في الثانية، فهو باطل من عدة أوجه :

أ . الجمع بين نصيحة علي أولا وغشه ثانيا لايصدر من أي صحابي كان، فكيف بالمغيرة وهو من أفاضلهم، إذ ليس الغش من أخلاق المسلمين، وقد صحَّ عنه صلى الله عليه وسلم :" من غشنا فليس منا " .

ب . ذكر الإمام الطبري في رواية المغيرة بن شعبة في الذين لم يبايعوا عليا ،فكيف تعقل نصيحة من لم يبايعه إن صحَّ ذلك ! .

ج . على تقدير صحة هذه الرواية لِم امتاز المغيرة بن شعبة وحده بنصيحته من دون الصحابة ؟ !.

د . هل كان المغيرة بن شعبة مستشارا خاصا للخلفاء من قبله حتى يلام على عدم قبول نصيحته ؟ !.

موقعة الجمل

أراد طلحة والزبير أن يؤكدا عدم رضائهما با الإجراءات التي اتخذها علي . رضي الله عنه . فاستأذنا عليا وتوجها إلى مكة لأداء العمرة، وكانت مكة بعد مقتل عثمان بن عفان بؤرةتجمَّع فيها خصوم علي ومناوئيه. فقد هرب إليها الأمويون بالمدينة كما هرب إليها عمال عثمان المعزولين(1) ومعهم ما استطاعوا جمعه من مال وعتاد وكانت السيدة عائشة . رضي الله عنها. في مكة قد شهدت موسم الحج فلما قضت مناسكها قفلت راجعة إلى المدينة، وفي الطريق لقيها رجل من أخوالها من بني ليث فأخبرها بمقتل عثمان . رضي الله عنه . فرجعت إلى مكة حتى نزلت باب المسجد وقصت حجر إسماعيل . عليه السلام . فتسترت فيه، واجتمع الناس إليها فقالت :" أيها الناس إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول لما بالأمس ونقموا عليه استعمال من حدثت سِنُّه، وقد استُعمل أمثالهم قبله، ومواضع من الحمى حماها لهم فتابعهم ونزع لهم عنها، فلما لم يجدوا حجة ولاعذرا بادروا بالعدوان فسفكوا الدم الحرام، واستحلوا البلد الحرام، والشهر الحرام، وأخذوا المال الحرام، والله لإصبع من عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم !.. ".(2)

واستطاع طلحة والزبير أن يقنعاها بالانضمام إليهما والخروج معهما لعل الله يصلح بها بين المسلمين، وتعود الأمور إلى نصابها قائلين :" لوخرجت معنا لعل الله يصلح أمر المسلمين على أيدينا.فقالت :إن هذا حدث عظيم وأمر منكر، فانهضوا فيه إلى إخوانكم من أهل البصرة فأنكروه، فقد كفاكم أهل الشام ما عندهم، لعل الله عز وجل يدرك لعثمان وللمسلمين بثأرهم " وتمثلت :

ولوأن قومي طاوعتني سراتهم لأنقذتهم من ا لِحبَال أوالَخْبلِ

فنادى المنادي :"إن أم المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون إلى البصرة، فمن كان يريد أعزز الإسلام وقتال المحلِّينوالطلب بثأر عثمان ومن لم يكن عنده مركب ولم يكن له جهاز فهذا جهاز وهذه نفقة ".(3)

---

(1) . الطبري : تاريخ 6/3

(2) . ابن الأثير : الكامل 207/3، الطبري : تاريخ 7/3

(3) . الطبري : تاريخ 8/3

وبذلك تكونت في مكة جبهة أخرى معارضة لعلي لاتقل خطورة عن جبهة الشام وتوجه الثلاثة إلى البصرة ومعهم جمع غفير، ومال كثير..وفي الطريق مرَّ القوم بماء يقال له الحوأب، فنبحتهم كلابه، فقالت عائشة ما هذا الماء ؟ قال بعضهم :ماء الحوأب، قالت : إنا لله وإنا إليه راجعون !ردُّوني..ردُّوني ! هذا الماء الذي قال لي رسول الله :لاتكوني التي تنبحك كلاب الحوأب، فأتى القوم بأربعين رجلا فأقسموا با لله أنه ليس بماء الحوأب.(1)

في تلك الأثناء وصل إلى علي خبر خروج عائشةوطلحة والزبير ومن معهم إلى البصرة، فرأى أن يخرج أولا إلى هؤلاءحتى لايكونوا شوكة في ظهره إذا قصد معاوية فقرر السير إلى الكوفة، وسأله بعض أصحابه عن سبب خروجهم فبيَّن لهم أنه يريد أن يلقى بهم إخوانهم فيدعوهم إلى الصلح ويبين لهم الحق ويناظرهم فيه حتى تجتمع كلمة المسلمين وتلتئم وحدتهم.

ولما أشرفت قوات طلحة والزبير على البصرة أرسل إليهم واليها لعلي . عثمان ابن حنيف . يسأل عائشة ومن معها عن سبب خروجها فكان جوابها :إن الغوغاء من أهل الأمصار ونُزَّاع القبائل غزوا حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحدثوا فيه الأحداث، وآووا فيه المحدثين، واستوجبوا فيه لعنة الله ولعنة رسوله، مع ما نالوا من قتل إمام المسلمين بلا تِرَةٍ ولاعذر،فاستحلوا الدم الحرام فسفكوه، وانتهبوا المال الحرام، وأحلوا البلد الحرام، والشهر الحرام، ومزقوا الأعراض والجلود وأقاموا في دار قوم كانوا كارهين لمقامهم ضارين مضرين، غير نافعين ولا متقين، لايقدرون على امتناع ولايمنون، فخرجت في المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم وما فيه الناس وراءنا، وما ينبغي لهم أن يأتوا في إصلاح هذا، وقرأتْ :{لاخير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أومعروف أوإصلاح بين الناس}(النساء114)، نهض في الإصلاح ممن أمر الله عز وجل وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الصغير والكبير والذكر والأنثى، فهذا شأننا إلى معروف نأمركم به، ونحضُّكم عليه، ومنكر ننهاكم عنه ونحثكم على تغييره " .(2)

ويؤكد ابن العربي على أن خروج عائشة لم يكن هدفه إلا الإصلاح بين الخصوم فيقول :".. وأما خروجها إلى حرب الجمل فما خرجت لحرب، ولكن تعلق الناس بها، وشكوا إليها ما صاروا إليه من عظيم الفتنة، وتهارج الناس، ورجوا بركتها في الإصلاح، وطمعوا في الاستحياء منهاإذا وقفت إلى الخلق، وظنت هي ذلك فخرجت مقتديةبا لله في قوله :{ لا خير في كثير من نجواهم }،{وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا

(1) . اليعقوبي : تاريخ 181/2، ابن طباطبا : الفخري .ص 86

(2) . الطبري : تاريخ 14/3

فأصلحوا بينهما} (الحجرات 09) (1)، وحين وصل علي إلى البصرة جاء إلى عائشة فقال لها: غفر الله لك! قالت: ولك! ما أردت إلا الإصلاح ".(2)

ولم يكن هذا الإصلاح هدف عائشة وحدها بل هوهدف طلحة والزبير أيضا فقد خرجوا قاصدين الصلح وجمع الكلمة، وأما ما رافق ذلك وما أعقبه من أمور فهي محض اجتهاد منهم، وهم من أهل الفقه والرأي.

وكذلك كان هدف علي . رضي الله عنه . من الخروج إلى البصرة، فقد جاء في تاريخ الطبري:"أن عليا . رضي الله عنه . لما أراد الخروج إلى البصرة قام إليه ابن لرفاعة ابن رافع فقال: يا أمير المؤمنين أي شيء تريد ؟ وإلى أين تذهب بنا ؟ فقال علي:أما الذي نريد وننوي فالإصلاح إن قبلوا منا وأجابونا إليه ".

وقال ابن الأثير في معرض حديثه عن وصول علي ابن أبي طالب إلى البصرة ما يأتي:"قام علي فخطب الناس فقام إلي الأعور ابن بنان المنقري فسأله عن إقدامهم على أهل البصرة ؟ فقال له علي الإصلاح، وإطفاء الثائرة، لعل الله يجع الشمل في هذه الأمة بنا، ويضع حربتهم، قال، فإن لم يجيبونا ؟ قال: تركناهم ما تركونا، قال: فإن لم يتركونا ؟ قال دفعناهم عن أنفسنا، قال: فهل لهم من هذا مثل الذي عليهم ؟ قال: نعم" .

وقام إليه أبوسلامة الدالاني فقال: أترى لهؤلاء القوم حجة فيما طلبوا من هذا الدم إن كانوا أردوا الله بذلك ؟ قال: نعم، قال:أفترى لك حجة بتأخير ذلك ؟ قال:نعم، إن الشيء إذا كان لا يدركفإن الحكم فيه حوطه وعمهنفعا، قال: فما حالنا وحالهم إن ابتلينا غدا ؟ قال: إني لأرجوأن لا يقتل منا ومنهم أحد نقَّى قلبه لله إلا أدخله الله الجنة ".(3)

بل إن غالبية الناس من الجيشين كانت ترغب في الصلح وتطمئن إليه، وخرج علي وخرج طلحة والزبير، فتوافقوا وتكلموا فيما اختلفوا فيه، فلم يجدوا أمرا هوأمثل من الصلح ووضع الحرب، ورجع علي إلى عسكره وطلحة والزبير إلى عسكرهما، وبات الناس خير ليلة لم يبيتوها من قبل.

ولكن أمر الصلح وما اجتمع عليه الطرفان لم يرض جماعة في جيش علي هم الثوار وخاصة السبئية (أتباع عبد الله ابن سبأ) الذين اشتركوا في قتل عثمان، وباتوا شرَّ ليلة لأنهم أدركوا أن إقامة الصلح بين

---

(1) . أحكام القرآن 153/3

(2) . الطبري : تاريخ 29/3

(3) . الكامل : 237،238/3

الطرفين فيه هلاكهم، فسوف يتفرغ الطرفان لهم ويقيمون عليهم الحد فباتوا يتشاورون فيما بينهم وقالوا: غدا يجتمع الناس عليكم، وإنما يريد القوم كلهم أنتم، فكيف بكم وعددكم قليل في كثرتهم ؟ وهنا قال أحدهم :إن القوم إن اصطلحوا فإنما يصطلحون على دمائنا، وإذا كان المر كذلك فليس لنا إلا أن نلحق عليا بعثمان ويرضى القوم منا با لسكوت ! ! لكن ابن سبأ اعترض على هذا الرأي وقال: بئس ما رأيتم، لوقتلناه قتلنا، وهم إنما يريدوننا..فقام آخر وقال: بل دعوهم وارجعوا بنا حتى نتعلق ببعض البلاد فنمنع بها، فرد عليه ابن سبأ :إذا يتخطفكم الناس...وخيرا كان الرأي لابن سبأ حيث قال: يا قوم إن عزكم في خلطة الناس فصانعوهم وذا التقى الناس غدا فنشبوا القتال، ولا تفرغوهم للنظر فإذا من أنتم معه لا يجد بدا من أن يمتنع، ويشغل الله عليا وطلحة والزبير ومن رأى رأيهم عما تكرهون فأبصروا الرأي وتفرقوا عليه، والناس لا يشعرون ! !.(1)

يقول الطبري في سياقه للخبر: "..وبات الذين أثاروا أمر عثمان بِشَرِّ ليلة باتوها قط.قد أشرفوا على الهلكة، وجعلوا يتشاورون ليلتهم كلها حتى اجتمعوا على إنشاب الحرب في السِرِّ، واستسروا بذلك خشية أن يُفطن بما حاولوا من الشر، فغدوا مع الغلس وما يشعر بهم جيرانهم، انسلوا إلى ذلك الأمر انسلالا، وعليهم ظلمة، فخرج مضريهم إلى مضريهم، وربعيهم إلى ربعيهم، ويمانيهم إلى يمانيهم، فوضعوا فيهم السلاح،فثار أهل البصرة وثار كل قوم في وجوه أصحابهم الذين بهتوهم، وخرج الزبير وطلحة في وجوه الناس من مضر، فبعثا إلى الميمنة، وهم ربيعة يعبئها عبد الرحمن بن الحارث بن هشام،وإلى الميسرة عبد الرحمن ابن عتاب ابن أسيد، وثبتا في القلب، فقال: ما هذا ؟ قالوا: طرقنا أهل الكوفة ليلا، فقالا :قد علمنا أن عليا غير منته حتى يسفك الدماء، ويستحل الحرمة، ونه لن يطاوعنا، وقصف أهل البصرة أولئك حتى ردوهم إلى عسكرهم، فسمع علي وأهل الكوفة الصوت، وقد وضعوا رجلا قريبا من علي ليخبره بما يريدون، فلما قال: ما هذا ؟ قال ذاك الرجل :ما فاجأنا إلا وقوم منهم بيَّتونا، فرددناهم من حيث جاءوا، فوجدنا القوم على رِجلٍ أركبونا، وثار الناس، وقال علي لصاحب مؤمنته: ائت الميمنة، وقال لصاحب ميسرته: ائت الميسرة، ولقد علمت أن طلح والزبيب غير منتهين حتى يسفكا الدماء، ويستحلا الحرمة، وإنهما لن يطاوعانا.(2)

وخفيت حقيقة المؤامرة على كلا الطرفين، وظن كل منهما الشر بصحبه دون علم وتثبت...وهكذا استطاعت السبئية ومن معهم أن ينشبوا الحرب بين علي وبين الزبير وطلحة، فظن أصحاب الجمل أن عليا

(1) . سيف بن عمر الضبي : الفتنة ووقعة الجمل .ص 149

(2) . الطبري : تاريخ 40/3

غدر بهم، وظن علي أن إخوانه غدروا به، وكل منهم أتقى لله من أن يفعل ذلك في الجاهلية، فكيف بعد أن بلغوا أعلى المنازل في الإسلام ؟!.

ونادى علي في الناس :" أيها الناس كفوا فلا شيء.." فكان من رأيهم جميعا في تلك الفتنة أن لايقتتلوا إلا بعد التحاجج، وإذا انتهى الأمر إلى القتال فلا يقتلوا مدبرا ولايجهزوا على جريح.(1)

وهذا يدل مرَّة أخرى على أن علي ابن أبي طالب وعائشة كانا بعيدين عن الفتنة كل البعد، وأنهما اجتمعا على التوافق وعدم الحرب إلا بعد نفاذ كل وسائل السلم.(2)

وكادت المعركة أن تنتهي عند انتصاف النهار بانتصار علي بعد مقتل طلحة والزبير(3)، إلا أنها عادت لتشتغل مرة أخرى حينما أقبلت عائشة في هودجها على جمل وحرَّض ابن سبأ أشياعه على قتل عائشة،وأحاط أهل البصرة بالهودج ومنعوا كل من أراد الوصول إليها من جيش علي، كما تفانى أهل الكوفة في الوصول إليها ورشقوا هودجها بالنبال حتى صار كالقنفذ من كثرة ما علق به من سهام، وكثر القتلى من الفريقين حول الجمل حتى سميت الموقعة باسم (موقعة الجمل) .ثم أمر علي مجمد بن أبي بكر، وكان من أنصاره، وعمار ابن ياسر أن يعقرا الجمل ويضعا الهودج في مكان بعيد عن الناس.

ولما انتهت المعركة، وانهزم أهل االبصرة.وأحسن علي . رضي الله عنه . إلى السيدة عائشة غاية الإحسان وجهَّزها بكل ما ينبغي لمثلها، وأذن لها في الرجوع إلى المدينة، وبعث معها كل من نجا ممن خرج معها إلاَّ من أحب المقام، واختار لها أربعين ا مرأة من نساء أهل البصرة المعروفاتلأجل مؤانستها في الطريق، وسيرها صحبة أخيها محمد ابن أبي بكر مكرمة محترمة.

فلما كان يوم رحيلها حضر علي وحضر الناس فقالت عائشة . رضي الله عنه .:"يابني..إنه والله ما كان بيني وبين علي في القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها، وإنه على معتبتي لمن الأخيار "، وقال علي . رضي الله عنه .:"صدقت والله ما كان بيني وبينها إلا ذاك، وإنها لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة "(4).ولكن الأمر كان اجتهادا والمجتهد يخطئ ويصيب.

---

(1) . الطبري : تاريخ 40/3

(2) . يوسف العش : الدولة الأموية ...مرجع سابق .ص 84

(3) . أما الزبير فقد ذكره علي في بداية المعركة بقول الرسول ﷺ له :"ستقاتله وأنت له ظالم"، فأقسم الزبير أن لا يقاتل عليا ،وانسحب من المعركة فتبعه رجل يسمى(جرموز) فقتله وأتى برأسه إلى علي، فأنبه وبشره بالنار. أما طلحة فقد أصيب في المعركة بسهم فنقل جريحا إلى البصرة فتوفي بها .

(4) . ابن طباطبا : الفخري .ص 88، سيف بن عمر: الفتنة ووقعة الجمل .ص 183

وكان قتلى الجمل حول الجمل عشرة آلاف، نصفهم من أصحاب علي، ونصفهم من أصحاب عائشة(1) وهوقول فيه مبالغة إذ أن عليا لما فرغ من أهل البصرة نظر في بيت المال، فإذا فيه ستمائة ألف وزيادة، فقسمها على من شهد معه، فأصاب كل رجل منهم خمسمائة.(2)

وقد اشتد الحزن بعلي . رضي الله عنه . على جميع القتلى، وكان يظهر توجعه وفجيعته على القتلى، فترحم عليهم، وكان يقول: " إن من قاتل فقتل وهولا يريد بقتاله إلا الق، ولا ينبغي إلا رضى الله، فهوشهيد" .

ولما جيء إليه بسيف الزبير دعا على من قتله، وذكر مواقف الزبير في يوم واحد: تأبينا له، وإظهارا لمكانته وفضله.

ولقد تصرَّف علي . رضي الله عنه . في غنائم موقعة الجمل تصرفا يدل على أن هذه لم تكن حربا بين مسلمين وغير مسلمين، وإنما هي حرب بين فريقين من المسلمين، يرى كل منهما أن الحق في جانبه، فجع كل مخلفات المعركة، وبعث إلى مسجد البصرة.قال:"من عرف شيئا له فليأخذه إلا سلاحا كان في الخزائن عليه سمة السلطان " .(3)

وكذلك صلَّى على جميع القتلى من الفريقين وجمع كثيرا فيقبر واحد، مما يدل على إيمانه بأنهم جميعا كنا يقاتلون تعبدا لا عنادا ولا شهوة، ولا شفاء خصومة قديمة،، أوحقد دفين، كما يريد خصوم الإسلام أن يصوروهم جميعا.

وكانت موقعة الجمل التي وقعت في السنة 36هـ السابقة الأولى التي يلتقي فيها المسلمون بسيوفهم التي طالما وجهت إلى أعدائهم في حرب المرتدين وفي حروب الفتح الإسلامي. وكانت نتائج هذه المعركة وخيمة لا على المسلمين وحدهم... بل أتت بنتائج وخيمة أيضا للتاريخ الإسلامي، وصعبت من مهمة الباحثين، فلقد كانت المعركة مادة خصبة لخيال القصاص والشعراء، فأسرفوا في ذكر القصص والأشعار ووضعوا على ألسنة كبار الصحابة ما لم يقولوه، ولين الأمر وقف عند هذا الحد بل أدَّى إلى إضعاف النفوس من أتباع الفريقين قاموا بوضع كثير من الأحاديث المختلفة والأخبار المزورة التي اكتسبت فيما بعد صبغة دينية نشأ عنها مذهب

(1) . الطبري : تاريخ 58/3

(2) . المصدر نفسه: 59/3

(3) . سيف بن عمر: الفتنة ووقعة الجمل .ص 178

الشيعة الذي قام على التشيع لغلي، وفي مواجهة هذا المذهب خرجت مذاهب أخرى متعددة أوهنت قوى الإسلام وأتت عليهبما ليس فيه والأصل في هذا مقتل عثمان وتعذُّر القصاص من قاتليه.(1)

يقول ابن كثير(2) بعد أن روى أخبار موقعة الجمل :" هذا ملخص ما ذكره أبوجعفر ابن جرير. رحمه الله . عن أئمة هذا الشأن، وليس فيما ذكره أهل الأهواء من الشيعة وغيرهم من الأحاديث المختلفة على الصحابة والأخبار الموضوعة التي ينقلونها بما فيها، وإذا دعوا إلى الحق الواضح أعرضوا عنه وقالوا : لنا أخبارنا ولكم أخباركم، فنحن حينئذ نقول لهم : سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين ".

موقعة صفين وقضية التحكيم

لما عاد علي رضي الله عنه بعد فراغه من الجمل قصد الكوفة ومكث بها أربعة أشهر يستعد خلالها لقتال الخارجين عليه وإرغامهم على الدخول في طاعته، والتفت بجيشه إلى الشام..وقبلأن يوجه إليه أرسل إلى معاوية يدعوه إلى الطاعة ويأمره بالدخول فيما دخل فيه المهاجرون والأنصار وبيَّن له في رسالته أن بيعة أهل المدينة تُلزم أهل الشام، وأن المهاجرين والأنصار هم أهل الحل والعقد وأنهم إذا أجمعوا على خليفة وجب على الناس مبايعته فإن أبى واحد منهم وجب على المسلمين مقاتلته، كما بيَّن له أنَّ حجته في عثمان باطلة فعليه أولا أن يبايع الخليفة الذي بايعه المسلمون ثم يطلب من الحاكم محاكمة القتلة ولكن معاوية أبى مبايعته واتهمه بقتل عثمان وإيواء قتلته وأن عليه أولا أن يسلم القتلة ثم يكون الأمر بعد ذلك شورى بين المسلمين ليبايعوا خليفة جديدا، فرد علي بخطاب شديد اللهجة فنَّد فيه تهم معاوية وأن المطالبة بدم عثمان ما هي إلا حجة اتخذها معاوية للخروج عليه.

فتجهز علي رضي الله عنه للقتال وكاتب الناس ليجتمعوا معه، وكذلك صنع معاوية رضي الله عنه ثم التقوا عند مدينة " صفين" التي تبعد مائة ميل عن مدينة الرقة وتقع بينها وبين حلب وكان ذلك في أواخر شهر ذي الحجة عام 36هـ

رأى علي قبل أن يلتحم الجيشان أن يعاود الدعوة إلى الصلح من جديد، وأن يعطي معاوية الفرصة الأخيرة للمفاوضات السلمية علّه يدخل في طاعته، ولكن معاوية رفض بل إنّه توعد وهدد ولم يحسن إجابة الوفد المفاوض..ومن أجل هذا قدم علي . رضي الله عنه البيان الأول للحرب :"ألا إنّ أمير المؤمنين يقول

(1) . نعمان الطيب سليمان وآخرون : الخلفاء الراشدون .مرجع سابق .ص 186

(2) . البداية والنهاية 247/3

لكم :إني قد استقدمتكم لتراجعوا الحق وتنيبوا إليه، واحتججت عليكم بكتاب الله عزّ وجل، ودعوتكم فلم تناهوا عن طغيان ولم تجيبوا إلى حق، وإني قد نبذت إليكم على سواء.إنّ الله لا يحب الخائنين".(1)

أما الحرب الإسلامية فهي :

« لا تقاتلوا القوم حتى يبدؤوكم، فأنتم بحمد الله على حجة وترككم إيّاهم حتى يبدءوكم حجة أخرى لكم،فإذا قاتلتموهم فهزمتموهم فلا تقتلوا مدبرا،ولا تجهزوا على جريح،ولا تكشفوا عورة، ولا تمثلوا بقتيل، فإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتكوا سترا، ولا تدخلوا دارا إلا بإذن،ولا تأخذوا شيئا من أموالهم إلا ما وجدتم في عسكرهم، ولا تُهيجوا امرأة بأذى وإن شتمن أعراضكم، وسبين أمراءكم وصلحاءكم، فإنهن ضعاف القوى والأنفس. » (2)

وقد كان لرفع المصاحف أثر كبير في تفتيت جبهة علي رضي الله عنه وتوهين جيشه.فقد عرف خصوم عليٍّ تكوين جيشه، وطبيعة جنده، فأكثرهم بدووأعراب جمعهم عليٌّ على عجل، ولم يروضهم بما فيه الكفاية على طاعته، وفيهم فريق من أهل البصرة الذين كانوا بالأمس يقاتلون ضده مع أصحاب الجمل.وفيهم أيضا الثغرة الكبيرة التي نفذوا إليه منها هي «جماعة القراء». وهم يمتازون بتكوينهم الفكري غير الواضح.. وآرائهم المتناقضةالمتضاربة.ولكنهم ضربوا أروع الأمثلة في الشجاعة والاستهانة بالموت.وعندما رأى القراء المصاحف تُرفع، وخوطبوا باسم القرآن الذي يقرأونه ويعرفون به،ولا يجوز لهم مخالفته،أصرُّوا على قبول نداء التحكيم وعبثا حاول علي أن يقنعهم أنها خدعة ومكيدة.وهدّدوا علياً إن عصى أمرهم بالقتل زعيمهم مسعر بن فدكي التميمي ومعه زيد بن حصين الطائي في عصابة من القراء.وقالوا له :ياعلي أجب إلى كتاب الله.عزّوجل.إذا دعيت إليه وإلا دفعناك برمتك إلى القوم أونفعل بك كما فعلنا بابن عفان !.3)

وانصدع جيش علي جبهتين جبهة كبيرة يتزعمها الأشعث ابن قيس تجبر عليا على التحكيم، وجبهة صغيرة بزعامة الأشتر النخعي تريد أن تُتِم النصر الذي أشرفت عليه، وكادت الحرب أن تشتعل بين الجبهتين، وأدرك علي ذلك فنزل على رأي الأغلبية وقبل التحكيم مكرها قائلا :" أحفظوا عني نهيي إياكم، وأحفظوا مقالتكم لي. "فأرسل إلى معاوية يجيبه واتفق الطرفان على أن يبعث كل منهما حكما ليحكِّما كتاب الله بينهم.

(1) . الطبري : تاريخ 82/3

(2) . المصدر نفسه

(3) . ابن الأثير :الكامل 317/3، وانظر : اليعقوبي :تاريخ 189/2

اختار معاوية عمروابن العاص حكما له فأطاعه أهل الشام، أما أهل العراق فقد أجبروا عليا على قبول أبا موسى الأشعري رضي الله عنه حكما رغم رفض علي له، لأنه فارقه يوم الجمل وخذَّل الناس عنه حتى أمَّنه بعد أشهر.واقترح عبد الله ابن عباس رضي الله عنه حكما.قالوا :والله لانبالي أنت كنت أم ابن عباس! لا نريد رجلا هومنك ومن معاوية سواء، قال علي :فإني أجعل الأشتر.قالوا : وهل سعَّر الأرض غير الأشتر ؟ فقال :قد أبيتم لا أبا موسى ؟ قالوا : نعم، قال : فاصنعوا ما أردتم.(1)

واجتمع الطرفان في دومة الجندل لكتابة وثيقة التحكيم، وروايات التحكيم عديدة، وليس بين أيدينا رواية واحدة نطمئن إليها لكون كل رواتها ثقاة، وسندع روايات أبي مخنف جانبا . التي أوردها الطبري . فهي تحمل في ثناياها أقبح الصور عن الخلاف والتحكيم..وقد لخَّص ابن كثير في البداية والنهاية ما اقتنع به من خلال الروايات فقال : "فلما اجتمع الحكمان تراوضا على المصلحة للمسلمين، ونظرا في تقدير أمور ثم اتفقا على أن يعزلا عليا ومعاوية ثم يجعلا الأمر شورى بين المسلمين ليتفقوا على الأصلح لهم منهما أومن غيرهما، وقد أشار أبوموسى بتولية عبد الله ابن عمر بن الخطاب، فقال له عمرو : فول ابني عبد الله فإنه يقاربه في العلم والعمل والزهد، فقال له أبوموسى : إنك قد غمست ابنك في الفتن معك، وهومع ذلك رجل صدق. "(2).

هذه حوانب من تاريخ الخلفاء الراشدين التي تبرز دورهم في نشر الإسلام وإلحاق الهزيمة بأكبر امبراطوريتين في العالم في أرض العراق والشام ومصر وما وراءهم، وبناء مؤسسات حكم ونظم وقيم حضارية استفاد المسلمون وغيرهم منها.

(1) . ابن الأثير : الكامل 319/3

(2) . ابن كثير :البداية والنهاية 283/7